أولادنا

كتاب الأدغال

بقلم: أمينة السعيد



أولادنا

٦

الأدغال

تأليف : ريديارد كبلنج
ترجمة : أمينة السعيد

الطبعة الثامنة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١

أخوة موجلى

إذا غابت الشمس عند المساء ... ولفَّ الظلام الرُّبى الخالية
تطير الخفافيش رفَّافة ... وتنساب رائحة جائية
وتأوِي إلى وكْرهنَّ الحِداء ... وتخشَع في بيتها الماشية
فإن الفضاء وما يحتويه ... لنا، ولنا العزَّة العاتية
فنضرب في الأرض أنى نشاء ... إلى مطلع البكرة التالية
بظفر وناب لنا صَوْلةٌ ... وسيطرة الغاب للضارية
هنيئًا لمن صاد ما صاده ... إذا اتَّبع السُّنن الماضية
وفي سُنَّة الغاب من عزَّ بزَّ ... فمرحى لمن ملك الناصية

«نشيد الوحوش»

في الساعة السابعة من مساء يوم شديد الدفء عند جبال سيوني، استيقظ الأبُ ذئبٌ من نومه اليوميّ، وحكّ جسدَه وتثاءب، ثم مدّ أرجله واحدةً إثرَ الأخرى، ليطرُدَ الكسلَ الذي يدبُّ في أطرافها. وظلت الأم ذئبةٌ راقدةً، وقد دَسَّتْ أنفها الرماديَّ الكبير بين جِرائها الأربعة الباكية التي وضعتها حديثًا؛ وأرسل القمرُ ضوءَه الفضيَّ من فُوَّهة الكهف الذي يعشنَ فيه جميعًا.

قال الأبُ ذئب:

– آه، لقد حان الوقتُ للصيد ثانيةً.

وكان على وشك أن ينهضَ، ويهبطَ عن التلّ عندما مر بالعتبة ظلٌّ صغيرٌ ذو ذيل منقوش، وسمع عواءً يقول:

– فليرافقْك التوفيقُ يا زعيمَ الذئاب، وليكنِ السَّعدُ والأنيابُ البيضاءُ القويَّةُ من نصيب صغارك النبلاء، حتى لا يكونَ جائعٌ في هذه الدنيا.

وكان المتكلمُ ابنَ آوى اسمه "تاباكي" لاعقُ الصحون؛ والذئابُ في بلاد الهند تحتقرُ ذلك الحيوانَ، لأنَّه يخلقُ المتاعبَ أينما حلَّ أو ذهب، ويُثير الفتن، ويأكل الفضلات التي يجدُها في كومات قُمامة القرية! ولكنَّها تخافه أيضًا، فهو أكثرُ أهل الغابة استعدادًا للجنون؛ وعندما يصيبه هذا الجنونُ، ينسى جبنه وخوفه، ويجري في أنحاء الأدغال.

ليعقِرَ كلّ ما يقابله في طريقه. وإذا ما جُنَّ جنونُ تاباكي الصغير اختبأ الكل حتى البَبْر، فالجنون أعظمُ ما يَشينُ الحيوانَ المفترسَ. ونحن نعرف هذه الحالةَ بمرض الكلَب، ولكن الحيوانات تسمّيها "ديواني" أو الجنونَ، وتهرُب من طريقه مسرعةً.

قال الأب ذئب في خشونة:

– ادخل يا هذا، وانظر بنفسك، فليس لدينا طعام.

أجاب تاباكي:

– ليس لديكم طعام لذئب، ولكنَّ عظمةً جافة تكون وليمةً طيبَةً لشخص وضيعٍ مثلي، فمن نحن حتى نتدللَ ونختارَ؟ لسنا إلا بنات آوي.

وأسرعَ إلى نهاية الكهف حيث وجد عظمةَ غزال عليها بعضُ اللّحم، فجلس يعرُقها، ويهشِمُ طرفها فرِحًا مسرورًا. ثم قال أخيرًا، وهو يلعِّق شفتيه:

– شكرًا جزيلاً على هذه الأكلة الطيبة.

واستطرد وهو ينظر إلى الجراء:

– ما أجملَ النبلاءَ الصغار، يا للعيون النَّجْلاء في هذه السن المبكِّرة! طبعًا طبعًا، فأولادُ الملوك رجال منذُ الطفولة.

وكان تاباكي يعرف أن النظر إلى الأطفال، والتحدث عن محاسنهم،

يعرضهم لإصابة العين، ويجلب الشؤمَ عليهم، ويزعِج آباءَهم، ومع ذلك تعمَّد ابن آوي هذا المديحَ، وسره أن يرى معالمَ القلق والإحراج على وجه الأب ذئب، والأم ذئبة.

وسكن تاباكي في مكانه فرحًا بما أحدثه من أذى، وقال في خبثٍ:

– لقد غيَّر "شيرخان" منطقةَ قَنْصه، وسيصيدُ في هذه التلال خلالَ الشهر القادم؛ هكذا قال لي.

وشيرخان هو البَبرُ الضخمُ الذي يعيش بالقرب من نهر "وانجونجا" على بُعد عشرين ميلاً من هذا المكان.

أجاب الأب ذئب في غضب:

– وبأيّ حقّ يفعَل ذلك ؟! إن قانون الغابة لا يُبيحُ له تغيير منطقته قبل إخطارنا في الوقت المناسب. سيخيفُ كلَّ ما يصلحُ للصيد حولنا، فيبعِدُه عن متناولنا، مع أنني في هذه الأيام أخرج في طلب طعام شخصين.

وقالت الأم ذئبة في هدوء:

– لقد أصابت أمه إذ سمَّته "الأعرج" فهو أعرجُ منذُ ولادته، وكان لهذا لا يفترسُ غيرَ الماشية الوادعة. والقرويونَ في وانجونجا ناقمون عليه من أجل ذلك، وها هو ذا قد أتى ليغضب أهل القرى القريبة منَّا أيضًا. سينقِّبون في الغابة ويقتفون آثاره، وسنضطرّ إلى أن نهرُبَ

بأولادنا عندما يحرقون الأعشابَ للبحث عنه، فلشيرخان منا مزيدُ الشكر !!

قال تاباكي:

– أأُبلّغه شكرَكم؟

فثار الأب ذئب غضَبًا وقال:

– إليكَ عنا. هيًّا انصرف لتصيدَ مع سيدك، فلقد أسأتَ إلينا هذه الليلة، وحسبك ما حدث.

أجاب تاباكي في هدوء قبل أن ينصرف:

– سأنصرف، وباستطاعتكم أن تسمعوا زئير شيرخان آتيًا من الدغَل، ليتني أرَحتُ نفسي ولم أحمِّلها مشقَّةَ نقل هذه الرسالة.

وأنصَتَ الأب ذئب، فسمع من أسفل التل، عند الوادي الذي يمتدّ إلى النهر، زئيرًا غاضبًا لببرٍ جائع متذَمِّر لم يوَفَّقْ إلى صيدٍ بعدُ، ولا يهمّه أن يعرفَ أهلُ الغابة خبرَ جوعه؛ فقال الأب ذئب:

– يا للغباء! أيبدأ عمله الليلةَ بهذا الصوت؟ أيظن أن المها الوحشية التي بأرضنا مثلُ ثيران وانجونجا الكسالى البدينة؟!

أجابت الأم ذئبة:

– صَهْ، إنه الليلةَ لا يبغي ثورًا أو مهاةً، بل ينشدُ بشرًا.

فلقد صار الزئيرُ نهيتًا يترددُ صداه في جميع نواحي الغابة، وهو

صوتٌ طالما أزعج الحطَّابينَ الذين ينامون في العَراء، وأيقظهم عندَ الفجر، وجعلهم – لفرْط الذعر – يجرُون إلى الببر، ويُلقون بأنفسهم بين أنيابه في بعض الأحيان.

قال الأب ذئب وهو يكشِّرُ عن أنيابه البيضاء:

– يصيد بشرًا ! ! أليس في المستنقعات وما يكتنِفها من الضّفادع والخنافس ما يكفيه؟ أيجرُؤُ على صيد البشر، ولا يفعل ذلك إلا في أرضنا نحن؟

إذ أن قانون الأدغال لا يبيح لأي حيوان مفترس أن يقتُلَ إنسانًا ويأكله، إلا إذا فعل ذلك ليعلِّمَ أولاده، وإذ ذاك يجبُ أن يكون الصيد خارجَ حدود منطقة العشيرة. والدافعُ الحقيقيّ لسَنّ هذا القانون أن قتلَ الإنسان يعقبه حتمًا حضورُ الصيّادين المسلحين فوقَ ظهور الفِيَلة يتبعهم مئاتُ الهنود الذين يحمِلون الطبولَ والمشاعلَ والصواريخ، فيقاسي كلّ مخلوق في الغابة ألوانَ العذاب. وتقول الحيوانات بعضها لبعض: إن الإنسانَ ضَعيفٌ أعزَلُ، فليس من الشَّهامة قتله؛ وتقول أيضًا –وهي حقيقة– إن أكَلةَ البشر من الحيوانات تصاب بالجرَب وتتساقط أسنانها أيضًا.

وازداد النهيتُ وعلاَ شيئًا فشيئًا حتى انتهى بأشد ما تقوى عليه حنجرةُ الببر من الزئير، ثم نبحَ شيرخان كما تنبَحُ الكلاب؛ فقالت الأم ذئبة:

– لقد أخطأ فريسته؛ ترُى ما الذي حدث؟!

وجرى الأب ذئب إلى الخارج، وتقدم بضعَ خطوات، فسمع شيرخان يزَمجِرُ في وحشية وهو يتعثَّر في طريقه بين الشجيرات؛ فقال الأب ذئب في ازدراء:

– لقد قفزَ الأبله فوق نيران أحد الحطّابين فشاطت أرجله. ها هو ذا تاباكي يصحبه.

فقالت الأم ذئبة, وهى ترفع أذنيها وترْهِفهما للسمع:

– أسمعُ حركة شيء يصعد في التل، فلنستعدّ.

واهتزت الشجيرات في الدغل، فرَبضَ الأب ذئب على مؤخرته تحفزًا للوثوب، ثم تلا ذلك منظرٌ عجيبٌ: فقد وثب الذئب وثبته حتى علا فوق الأرض ثم تردد وارتد حتى هبط في مكانه الأول! بدأ بالوُثوب قبلَ أنْ يُدِرك حقيقةَ الهدَف الذي يتّجه إليه، فلما تبيّنه حاول أن يمنع نفسه من إتمام قفزته، فاستدار بعد أن ارتفع فوق الأرض، وهبط في المكان الذي قفز منه؛ وزمجَر قائلاً:

– إنه بشرٌ. جَرْوُ رَجلٍ. انظري.

والتفتت الأم ذئبة فرأَت أمامها طفلاً أسمر اللون عاريَ الجسد، تعلم السّير حديثًا، وقد استند إلى غصنٍ قصيرٍ، فكان أغرَبُ ما استقبله وجارَ ذئب في الليل. ورفع الطفلُ رأسه، ونظَر إلى الذئب ضاحكًا.

سألت الأم ذئبة:

– أهذا جرْوٌ بشريّ، لم أرَ واحدًا من قبل، فأحضره إليّ.

والذئب الذي اعتاد أن ينقل صغاره من مكان إلى مكان، باستطاعته – إذا دعا الأمرُ– أن يحمل في فمه بيضةً دون أن يحْطِمها، وكذلك فعل الأب ذئب بالطفل، فأطبقَ فكَّيْه على ظهره، ووَضَعه بين صغاره دونَ أن يصيبه بأذًى.

هتفت الأم ذئبة في رقة:

– إنه عاري الجسد، ما أصغرَه وما أشجعه!!

فلقد كان الصبي يخترق طريقه في شجاعة بين الجِراء، ليتدفَّأ واستطردت الأم:

– يا للعجب! إنه يتناول طعامه معهم. هذا إذًا رجلٌ صغيرٌ، أسمعتَ من قبلُ أن ذئبة ربَّتْ بين صغارها جرْوًا بشريًّا؟

أجاب الأب ذئب:

– سمعتُ بمثل ذلك، ولكني لم أرَهُ في العشيرة طوَالَ حياتي. يا لجسده الأملس. إن لمسةً بكفي كفيلةٌ أن تقتله. انظري كيف يشخَصُ إلينا دونَ خوف أو وَجلٍ.

وفي هذه اللحظة احتبس ضوء القمر عن الكهف، فنظر الأب ذئب إلى فتحة الجُحر فرأى الببر شيرخان يحشُر رأسه الكبيرَ وكتفيه العريضتين فيها. وارتفع صوت تاباكي يُعْوِلُ من خلفه قائلاً:

– لقد دخل هنا يا مولاي.

فنظر الذئب إلى الببر وقد التمع الغضب في عينيه وقال:

– شيرخان يسبغ علينا شرفًا عظيمًا بزيارته، فماذا يريد شيرخان؟

أجاب الببر:

– أريد قنيصَتي، جَرْوًا بشريًّا اتجهَ إلى هذه الناحية. لقد هرب والداه، وتركاه خلفهما، فأعطنيه.

وكان شيرخان قد قفز على نارٍ أوقدَها أحدُ الحطّابين كما ظنّ الأب ذئب من قبلُ، فثار غاضبًا من ألم أقدامه المحترقة. ولم يهتمّ الأب ذئب كثيرًا بغضب شيرخان، لأن مدخل الكهف كان أضْيقَ من أن يَلِجهُ الببر.

أجاب الأب ذئب:

– الذئاب شَعْبٌ حرٌّ يتلقى الأوامر من زعيم العشيرة، لا من ببر مثلك قاتلِ أبقاء مخطط الجلد. ولتعلم أن جرْوَ البشر ملكنا، ولنا نحن أن نبقيه أو نقتله إذا أردنا.

– إذا أردتم؟! ما هذا الكلام؟ وماذا تريدون؟ أقسِم بالثور الذي قتلته أنني لن أبقى واقفًا عند جُحر الكلاب الذي تعيشون فيه من أجل قنيصتي. ألا ترى أن الذي يتحدّث إليك هو شيرخان العظيم؟!

وردّدَتْ جدران الكهف صَدَى زَئيره. كأنه الرعدُ، فنهضت الأم

ذئبة، وابتعدت عن جِرائها، وتقدَّمت نحو الفُوهة مسرعةً، وواجهت عيني شيرخان المتقدتين وحدَّقت فيهما بعينين خضراوَين تلتمعان في ظلام الكهف مثل الشُّهُب، وقالت:

– وأنا "راكشا" الشيطانة التي تجيبك. إن هذا الجرْو ملكي، ولي وحدي، فلن أمكِّنك من قتله. سيعيشُ مع العشيرة، ويجري بين أبنائها ويصيدُ معهم، وسوف يصيدك أنت بعد حين يا قانصَ الجراء العُراة، ويا آكلَ الضّفادع وصائدَ الأسماك. والآن اذهب عنا، يا آكلَ البقرات العجاف، وإلا فقسمًا بالوَعْل الذي قتلته لأعيدنَّك إلى أمك، أشدَّ عرجًا مما كنتَ يوم جئتَ إلى هذه الدنيا. هيا انصرف عنا يا وحشَ الغابة المحترق!

ونظر إليها الأب ذئب معجبًا فخورًا، فلقد كاد ينسى صورة زوجته يومَ كانت في رَيعان شبابها تجري بين العشيرة، وتلقَّبُ بالشيطانة عن جدارةٍ واستحقاقٍ. وعندما أراد الزواج منها لم يظفْر بها إلا بعد أن نازَل خمسةَ ذئابٍ وهزمها جميعًا.

لقد كان شيرخان يستطيع أن يقفَ أمامَ الأب ذئب، أما هى فلن يستطيعَ معها ذلك أبدًا، ولو فعل لقاتلتْه حتى الممات؛ كان شيرخان يعرف حقّ المعرفة أن المكانَ الذي يقف فيه يُتيحُ لها الفرصة للتغلب عليه. فتراجع عن فتحة الكهف مزَمجرًا، وصرخ من الخارج يقول:

– حقًّا إن الكلب ينبح في داره. سنرى ما تقوله العشيرةُ عن رغبتك في تبنِّي جرْوٍ بشريّ. إنه ملكي، وسيعودُ إليّ آخرَ الأمر، فتمزقه أنيابي، أيها اللصوص ذَوي الأذيال المنقوشة.

وعادت الأم ذئبة وهى تلهث، وألقت بنفسها بين جِرَائها، فقال لها الأب ذئب:

– لقد صدَق شيرخان، ومن واجبنا أن نعرض الجروَ على العشيرة. فهل أنت مصرّةٌ على الاحتفاظ به؟

فشهقت مجيبةً:

– أحتفظ به؟! طبعًا، فلقد لجأ إلينا بين طيّات الظلام عاريًا جائعًا، وما خافنا ولا خشِيَ بأسنا. انظر، ألا تراه؟ لقد أزاح أحدَ صغاري من مكانه ليجلسَ بيننا، لو استطاع هذا القصّاب الأعرج أن يأكله لفعل ثم هرب عائدًا إلى منطقة صيده في وانجونجا، فيجيءُ القرويون إلينا هنا وينقبون عن الجرو الصغير في كل مسكنٍ من مساكننا، وينتقمون منا له. ثق أنني سأحتفظ به.

ثم التفتت إلى الصبي قائلة:

– نمْ واسترح أيها الضفدعُ الصغير. ثم يا "موجلي". سيكون اسمك بيننا موجلي "الضفدع"، وسيأتي اليومُ الذي تقتنِصُ فيه شيرخان كما أراد أن يقتنصك الليلة.

سأل الأب ذئب:

- ولكنْ ما الذي ستقوله العشيرة؟

وكان قانونُ الأدغال ينصّ في وضوح على أن الذئب إذا تزوج فمن حقّه أن ينسحب من العشيرة إذا أراد؛ ولكنْ يتحتمُ عليه حينَ تكبَر جراؤه، وتستطيع المسير أن يصحبَها إلى مجلس الشُّورى الذي ينعقدُ عادةً عندَ اكتمال القمر من كلّ شهر، وذلك ليعرضها على الذئاب الأخرى لتعرفها. وللجراء بعد هذا العرْض الحريّةُ في الذهاب أينما شاءت. وإلى أن تقتنصَ تلك الجراءُ أولَ فريسة لها، لا يصح لذئب من العشيرة أن يقتلَ أحدَها. والموت هو العقاب الوحيد لمن يقترف هذه الجريمة.

وانتظر الأب ذئب بعضَ الزمن حتى استطاعتْ جراؤُه السير قليلاً، ثم ذهب هو والأم معهم إلى اجتماع العشيرة ذاتَ ليلة، وأخذوا معهم الطفل موجلي؛ وقصد الجميع صخرةَ الشورى التي تقع فوق تل كثير الأحجار والصخور حيث تستطيع مئات الذئاب أن تختبئ وراءها.

وكان "أكيلا" (الذئب الأوحد) العظيم هو الذي يتزعّمُ العشيرة بفضل قوّته ودهائه، وكان يرقُد متمدّدًا فوق صخرته، ومن حوله كان يجلس ما يزيد على أربعين ذئبًا من كل لون ومن كل حجم: بعضُها رماديّ محَنّك يستطيع أن يقتنص فريسته دونَ مساعدةٍ، وبعضها أسودُ

لم تكتمل حِنكتهُ بعدُ لأنه ما زال في الثالثة من عمره. ولقد سادها الذئب الأوحدُ خلالَ العام الأخير؛ لأنه كان قد وقع أيام الشباب مرتين في شركٍ، وضُرب مرةً حتى أوشك أن يموت، فتعلمَ أساليب البشر وعاداتهم فنجح في زعامته كلّ النجاح.

وكان الحديثُ عندَ الصخرة قليلاً، والجراءُ الصغيرة تتعثر داخل الحلقة التي يجلس فيها الآباء والأمهات؛ وبين آن وآخرَ يتقدمُ ذئب كبير نحوَ جروٍ منها، ويتأمله مليًّا، ثم يعود إلى مكانه في خطًى خافتة. وفي بعض الأحيان تقود إحدى الأمهات صغيرَها، وتُجلسه تحت ضوء القمر، حتى تستطيعَ الذئاب أن تراه في وضوحٍ. ويهتف أكيلا من فوق صخرته قائلاً:

– إنكم تعرفون القانون، فانظروا جيِّدًا أيها الذئابُ.

وترددُ الأمهاتُ القلقات بعده:

– انظروا، نعم انظروا جيِّدً، أيها الذئاب.

واقشعرت الأم ذئبة عندما حان الوقت لعرض الصبيّ، ودفع الأب ذئب موجلي "الضفدعَ" – كما يسمونه – داخلَ الحلقة، فجلس الصبيُّ ضاحكًا، وهو يعبث ببعض الحصى الذي يلتمع تحت ضوء القمر.

ولم يرفع أكيلا رأسه وقد أسنده فوق يديه، واستمرّ في ندائه الذي لا يتغيّر قائلاً:

– انظروا جيدًا أيها الذئاب.

فارتفع من خلف الصخور زَئيرٌ مكبوتٌ:

– هذا الجرو ملكي؛ فأعطني إياه. أيُّ شأن لشعب الأحرار مع جَروٍ بشريٍّ؟

ولم يحرّك أكيلا حتى أذنيه، وقال:

– نعم، انظروا جيدًا أيها الذئاب. وأي شأنٍ لشعب الأحرار مع مخلوق من غير شعبهم؟ انظروا جيدًا.

وترددتْ في الجو تمتمةٌ عميقة، ثم قام ذئب صغير في الرابعة من عمره، وأعاد على أكيلا سؤالَ شيرخان:

– أيُّ شأن لشعب الأحرار مع جَروٍ بشريّ؟

وينصّ قانونُ الأدغال على أنه إذاً قام نزاع حولَ حقّ أحد الجراء في الانتماء إلى العشيرة، فالواجب أن يؤَيد هذا الحق اثنان غيرَ أمه وأبيه.

قال أكيلا:

– من يؤيدُ جرو البشر؟ مَنْ مِنْ شعب الأحرار يريد أن يتكلم؟

لم يجب أحد، فاستعدت الأم ذئبة للدفاع عن الصبيّ، والقتال دونه إذا اقتضى الأمرُ.

وكان الحيوانُ الغريب الذي سُمحَ له بحضور ذلك المجلس هو "بالو" الدبُّ البنيُّ العجوز الذي كان يعلم جِراء الذئاب قانون الغابة؛ وكان

مباحًا له أن يذهب ويجيءَ أينما شاء، لأنه يقتات بالجوز والجذور وأقراص الشّهد، ويأكلها قانعًا وهو رابضٌ على رجليه.

قال بالو:

– جروُ البشر؟ جرو البشر؟ سأدافع عنه وإن حرمتُ مَلَكَة الخطابة. صدقوني ليس هناك خطرٌ في وجوده، دعُوه يجري مع العشيرة، واقبلوه بين أبنائها، وأتعهد لكم بتعليمه.

أجاب أكيلا:

– نحن في حاجة إلى مؤيّد آخر. لقد تكلم بالو، وهو معلم جِرائنا الصغار، فمن منكم يرى رأيه؟

وسقط في الحلقة شبَحٌ أسود، ثم ظهر "بجهيرا" النَّمِر الأسود، وبدا حالك اللون اللهم إلا من بقع تلتمع تحت ضوء القمر كالحرير المنقوش. كانت الذئاب تعرف بجهيرا، وتخشَى أن تعترضَ طريقه، لأنه أمكر من تاباكي، وأقوى من جاموس الوحش، وأجرَأ من فيل جريح؛ ولكنّ صوته كان في حلاوة الشَّهد البريّ الذي يتساقط من الأشجار، وجلده في بهاء الفجر وجماله.

قال في صوت منخفض:

– يا أكيلا، ويا شعبَ الأحرار. ليس لي حقّ الحديث في مجتمعكم هذا، ولكن قانونَ الأدغال يقول: إنه في غير حالات القتل

إذا قام خلاف في أمر أحد الجراء، أمكن شراءُ حياة هذا الجرو بثمن معين. ولم يحدد القانون من لهم حقٌّ دفع هذا الثمن ومن ليس لهم. ألستُ صادقًا فيما أقول؟

أجابت صغار الذئاب النهمة:

– حسنًا، حسنًا. استمعوا إلى بجهيرا. يمكن شراء حياة الجرو بثمن معين. هذا هو نصّ القانون.

– أريد أولاً أن أستأذنكم في الحديث، ما دمت لا أملك حقَّه هنا. فهتف عشرون صوتًا معًا:

– تكلم إذًا، تكلم إذًا.

فقال بجهيرا:

– من العار أن تقتلوا جروًا عاريًا، فضلاً عن أنه قد يستطيع أن يساعدكم كثيرًا عندما يكبر. لقد تكلم بالو ودافع عنه، وإني أعرض عليكم ثورًا سمينًا قتلته منذُ قليل، وهو ملقى على بُعد نصف ميل من مكانكم هذا، فإذا جعلتم جَرْوَ البشر واحدًا منكم منحتكم إياه. أتوافقون؟

فتعالت عشرات الأصوات تقول:

– وأيُّ ضرر من بقاء الجرو بيننا؟ ستُميته حتمًا أمطارُ الشتاء، أو تحرقه شمس الصيف. أيّ ضرر يستطيع أن يلحقه بنا ضِفدَعٌ



عاري الجسد؟ دعوه يعيش مع العشيرة. أين الثورُ يا بجهيرا؟ اقبلوا الجرو سريعًا.

وارتفع صوت أكيلا الجهير يقول:

– انظروا جيدًا، انظروا جيدًا، أيها الذئاب.

وكان موجلي منصرفًا إلى اللعب بالحصى، ولا يفكر في شيء سواه. فلم يرَ الذئاب وهى تقترب منه. وتتأمله واحدًا إثرَ واحد. وأخيرًا هبط الكلّ التلّ سعيًا وراء الثور القتيل، ولم يبق عند صخرة الشورى غير أكيلا وبجهيرا وبالو وذئاب موجلي. وزأر شيرخان غضَبًا، لأن الصبيّ لم يُسلم إليه.

فتمتم بجهيرا مغيظًا محنقًا:

– نعم، ازأرْ زئيرَ الجبروت والعزّة، فعن قريب سيجعلك هذا المخلوقُ العاري الصغيرُ تزأرُ زئيرَ الضعف والذلة، وإلا فما أنا بأمور البشر عليم.

قال أكيلا:

– حسنًا فعلتَ بدفاعك عن موجلي، فللبشر وجرائهم ذكاءٌ عظيم، وقد يساعدنا هذا الجرو كثيرًا عندما يحينُ الوقت.

فأجاب بجهيرا:

– صدقت، سيساعدُنا في وقت الحاجة، فليس لأحد أن يأمُلَ في زعامة العشيرة إلى الأبد.

ولم يقلْ أكيلا شيئًا، فقد كان يفكر فيما يصيبُ كل زعيم للعشيرة عندما يتقدمُ به العمرُ وتزايله القوةُ، ويزدادُ به الضعفُ يومًا بعدَ يوم إلى أن تقتله الذئابُ أخيرًا، ويتبوأ مكانه زعيمٌ آخر، ليُقتلَ كذلك عندما يأتي دورُه، وتدنو شمس حياته من الغروب.

قال أكيلا للأب ذئب:

- لقد أصبح ربيبك من العشيرة، فانصرفْ به، وعلمه جيدًا كما يتعلم أبناءُ شعب الأحرار.

وهكذا دخل موجلي عشيرة ذئاب سيوني بفضل تأييد بالو، وبثمن بذَله بجهيرا قدرُه ثورٌ شحيم.

* * *

مضت عشرُ سنوات أو ما يزيدُ، وموجلي يعيشُ بينَ الذئاب... فليتصور القارئ تلكَ الحياةَ الرائعةَ التي تمتَّع بها خلالَ هذه الفترة، لأننا لو أردنا سرْدَ حوادثها، لفاضَتْ بها كتبٌ عدة: فقد عاش مع الذئاب، ونشأ بين الجِراء التي بلغت سنّ النضج، وهو ما زال صبيًّا. ولقَّنه الأب ذئب واجباته وأعماله، وعلمه معانيَ مختلف الأشياء في الغابة، حتى صار حفيفُ الحشائش والأشجار، ونسيمُ الليل الدافئ، ونعيبُ البوم، وحركةُ الخفاش، ورَذاذ الماء الذي يعقب قفزَ الأسماك في

الغدير، صارت كلها لغاتٍ مألوفةً لديه يفهم معانيها ودقائقها، كما يفهم أيُّ عاقل معانيَ عمله ودقائقه.

وعندما كان موجلي ينتهي من درسه، كان يقضي بقيّة وقته في الجلوس، أو النوم في الشمس، أو في الأكل الذي يعقبه النوم ثانية. وإذا ضايقته القذارة، أو أحسّ بحرارة الجوّ، نزل في أحد غُدران الغابة يسبَح فيه. وكان إذا أراد أكلَ الشّهد وقد أخبره بالو أن الشهد والجوز لا يقلان لذةً عن اللحم النَّيء -تسلق الأشجارَ للحصول عليه. وعلمه بجهيرا كيف يتسلق الأشجار، فكان يسبقه إليها، ويبسط جسمه فوق أحد الغصون الكبيرة، ويهتفُ بالصبي مشجّعًا:

- تقدم أيها الأخ الصغير.

وفي بادئ الأمر كان موجلي يتعلق بالشجرة مثلما يفعل الحيوانُ المسمى بالكسلان, ولكنه استطاع بعدَ وقت قصير أن يتقنّ التسلق، ويقفزَ بين الغصون في شجاعة القرَدة وخفَّتها.

وأخذ موجلي مكانه أيضًا فوقَ صخرة الشورىَ عند اجتماع العشيرة، وهناك كشف أنه إذا حدق بنظره إلى ذئب غَضَّ ذلك الذئبُ طرْفه، وخفض عينيه، وعجز عن مقابلة نظراته بمثلها، فدَفعه هذا الكشفُ إلى أنه صار يحدق في كل من رآه لا يطلب من ذلك سوى التسلية. وكان في بعض الأحيان ينحني فوق أصدقائه لينتزعَ الأشواكَ

الطويلة من أقدامها، فالذئاب تعذبها كثيرًا تلك الأشواكُ التي تنغرِز في لحمها. وكان يهبِط التل أحيانًا في الليل، ويذهب إلى الحقول الواسعة، ويتأمل القروّيين في أكواخهم متعجبًا؛ ولكنه لم يكن يحب البشرَ أو يأتمنهم، لأنه حدَث ذاتَ مرة أن أراه بجهيرا صندوقًا مربعًا له غطاءٌ متحرك أخفِيّ بين الأشجار في دهاء، وأفهمه أنه فخ مما يستعمله البشر لاقتناص أهل الغابة.

وكانت أحبّ رياضة إلى موجلي أن يصحبَ بجهيرا إلى قلب الأدغال الظليل الدافئ، لينام طيلة النهار، ثم يشاهدُ صديقه وهو يصيد في الليل. ولقد اعتاد النمر بجهيرا أن يقتلَ فريسته في وحشية إذا أحس بالجوع، وهكذا كان يفعل موجلي، إلا أنه كان لا يقتل السائمة؛ إذ ما كاد يبلغ من العمر ما يمكنه من فهم الأمور حتى نهاه بجهيرا عن قتلها، لأن حياته افتديتْ بثور. قال له:

– إن الغابة جمعاء ملكٌ لك، وفي مقدورك أن تقتل ما تستطيع مما فيها، ولكن يجب عليك ألا تقتل أو تأكل السائمة صغيرةً كانت أم كبيرةً إكرامًا للثور الذي افتدى حياتك، هذا هو قانون الغابة.

واحترم موجلي القانونَ، وظل يتبعه بإخلاص حتى نهاية حياته. ونما الصبي سريعًا، وازدادت قوته، كما يحدث عادةً لمن لا يفكر في غير الطعام.

ولقد أخبرته الأم ذئبة أكثرَ من مرة أن شيرخان لا يُؤتمن، وعليه في يوم من الأيام أن يقتله. ولو أنه كان ذئبًا صغيرًا لتذكر هذه النصيحةَ، ولكن موجلي كان دائمَ النسيان، لأنه صبيٌّ على كلّ حال، مع أنه لو استطاع التحدث بلغة بشريّة لسمّي نفسه ذئبًا.

وازداد تردد شيرخان على المكان، فقد تقدم العمر بأكيلا، وبدأت قواه تتخاذل، فانتهز الببر هذه الفرصةَ وتقرّب من صغار ذئاب العشيرة وصادَقها، فتبعته أينما ذهب من أجل بقايا طعامه، وهو أمرٌ مُشينٌ ينكرُه الزعيمُ كلّ الإنكار. وما كان يسمح به لو كان في عنفوان قوّته، وقدرته على بسط سلطانه كما يجب.

وتبعت الذئاب الصغيرة شيرخان، فراح يتملقها بالحديث ويعجب كيف ترضَى قناصةٌ قويةٌ مثلها بقيادة جَرْو بشريّ، وزعامة ذئب عجوز يوشك أن يموت؛ ويقول:

– سمعتُ أنكم في مجلس الشورى لا تجرُؤُون على مواجهة نظراته، والتطلع إلى عينيه.

فتُزمجر الذئاب وتقِفُّ شعور أعناقها غضبًا.

وبلغ بجهيرا بعضُ هذا الحديث، فما كان يغيبُ عنه أمرٌ في الغابة، وتكلم مع موجلي كثيرًا، وأفهمه أن شيرخان سيقتله ذاتَ يوم؛ فكان الصبيّ يضحك ويقول:

– إنّ العشيرة معي، وأنت أخي، وبالو صديقي على الرغم من كسله، وأظنكم جميعًا على استعداد للدفاع عني إذا اقتضى الأمر، فلماذا أخاف إذًا؟!

وفي أحد أيام الصيف الدافئة، نبتت لدى بجهيرا فكرةٌ عقب حديثٍ حمله إليه "إيكي" القنفذ، فصحب موجلي إلى الغابة، وتوغلا بعيدًا بين الأشجار، وهناك تمدد النمرُ، ورقد الصبيّ إلى جوار صديقه الأسود، وتوسّد ظهره الجميل؛ فقال بجهيرا:

أيها الأخُ الصغيرُ، كم مرةً أخبرتك فيها أن شيرخان عدوك الأكبر؟

– أكثرُ من عدد الجوز الذي يحمله هذا النخيل.

فلم يكن موجلي بطبيعة الحال يعرف العدَّ. واستطرد الصبيّ قائلاً:

– وبعد؟ إنني أريد النوم يا بجهيرا، وأنت تعرف أن شيرخان فخور مغرور مثل "ماوو" الطاووس.

– ليس هذا وقت النوم يا صديقي، فبالو يعرف صدقَ هذا القول، العشيرة كلُّها تعرف، وحتى الغزالة البلهاء تعرف هذا، ولقد أخبرك به تاباكي.

فأجاب موكلي ضاحكًا:

– لقد أفضَى تاباكي إليّ بحديث أنكرته عليه، وهو أنني جَرْوٌ

بشري عاري الجسد، ولستُ أهلا لشيءٍ حتى النّبش عن الجذور. فأمسكت بذيله، وطوحت به في الهواء، وضربت به جذع النخلة لألقنه درسًا في الأدب.

– طيشًا منك أن فعلت، حقًّا إن تاباكي مُشاكس يجلب المتاعبَ دائمًا، غيرَ أنه يستطيع أن يخبرك بالكثير مما يُهمَك. تنبه يا أخي الصغير، فإذا كان شيرخان لا يقدر أن يقتلك الآن، فإنه يجب عليك ألا تنسى أن العمر قد تقدم بأكيلا، وسيخطئ طريدته عن قريب، ويعجَز عن قتلها، فيُنحَّى عن منصب الزّعامة. ولقد تقدمَ العمرُ كذلك بكثير من الذئاب التي رأتك يوم جئتَ إلى مجلس الشورى أوّل مرّة، والذئاب الفتيّة تعتقد –كما علمها شيرخان– أنك جروٌ بشري دخيلٌ على العشيرة؛ وأنك ستصبح رجلا عمَّا قريب.

قال موجلي:

– وأيّ قيمة للرجل إذا لم يستطعْ أنْ يعيش مع إخوته؟ لقد وُلِدْتُ في الأدغال، واحترمت قانونها، وليس في العشيرة ذئب واحد لم أنزع الشوكَ من قدمه. كلهم إخوتي دون شكّ!

ومدّ بجهيرا جسده، وأطبق جفنيه نصفَ إطباق، وقال:

– أيها الأخُ الصغير، المس ما تحت فكّي.

فوضع موجلي يده السمراء القوية تحت ذقن بجهيرا الناعم، حيثُ

تختفي عضلاته الجبّارة تحت طبقات شعره الكثيف، فلمس جزءًا عاريًا من الشعر.

ثم قال بجهيرا:

– ليسَ في الغابة كلها مخلوقٌ واحدٌ يعرف أن بجهيرا يحمل هذه العلامة، علامةَ الطوق. لقد وُلدت، يا أخي الصغير بين البشر، وبين البشر ماتت أمي داخل قفص القصر الملكيّ "بأديبور". ومن أجل العشرة القديمة افتديت حياتك في مجلس الشورى عندما كنت جروًا صغيرًا عاري الجسد. نعم، فقد وُلدت أنا أيضًا بين البشر، ولم أرَ الغابة أبدًا في حياتي، وكانوا يطعمونني في إناء حديدي يُدفع إليّ مرة من بين أعمدة القفص. وفي ذات ليلة شعرت فجأة أنني بجهيرا النمر ولستُ لعبة الناس، فحطّمت القفل بضربةٍ واحدةٍ من كفي، وهربتُ من القفص، ولأنني مارست أساليبَ البشر، وعرفت طُرقهم وعاداتهم؛ صرت أخطرَ أهل الغابة جميعًا، ولا أستثني أحدًا حتى شيرخان، أليس كذلك؟

أجاب موجلي:

– صدقتَ، فالغابة وعامّةُ من فيها تخشى بجهيرا، وكلهم يرتعد منك خوفًا ما عدا موجلي!

قال النمر في حُنُوٍّ:

– إنك جروٌ بشريٌّ، وكما عدتُ أنا إلى الغابة، يجب أن تعود أنت إلى شعبك، إلى إخوانك البشر. هذا إذا لم يقتلوك في مجلس الشورى!

وسأل موجلي:

– يقتلونني؟ ولماذا يسعى أحدٌ إلى قتلي؟

قال بجهيرا:

– انظر إليّ:

ورفع الصبيّ نظره إليه، وتأمل عينيه، فلم يستطع النمر أن يبادله النظر، وأدار رأسه في سرعة وعَجَبٍ، ثم قال، وهو يحرك مخالبه فوقَ أوراق الأشجار الجافة:

– هذا هو السبب، حتى أنا لا أستطيع مواجهةَ نظراتك! ولكني أحبّك يا أخي الصغير لأنني وُلدْتُ بين البشر! أما الآخرون فيكرهونك لأنهم لا يقوَوْنَ على النظر إليك، ولأنك ذكيٌّ، ولأنك تنتزع الأشواك من أقدامهم، وأخيرًا لأنك بشرٌ!

قال موجلي واجمًا:

– لم أكن أعرف هذه الأمور.

وقطب جبينه، وعقَد حاجبيه الكثيفين، فارتفع صوت بجهيرا يقول:

– ألا تعرف قانون الغابة؟ إنه يقول اضرب أولاً ثم تكلم، فإهمالك يذكرّهم دائمًا بجنسك. كن حكيمًا يقظًا! ولتعلمْ أنّ أكيلا يبذل جهدًا

كبيرًا لاقتناص مهاة صغيرة، وقلبي يحدثني أنه عندما يخطئ صيده القادم ستنقلبُ العشيرة عليك وعليه، ويعقدون مجلس الشورى عند الصخرة، لطرده والانتقام منك؛ وقد أتولى أنا الزعامة بعد ذلك.

واستطرد قائلاً وهو ينهض:

– اذهب سريعًا إلى أكواخ القرويين في الوادي، وأحضر جزءًا من الوردة الحمراء التي تنمو هناك، حتى إذا أزف الوقت، كان بجوارك صديقٌ أقوى مني، ومن بالو، ومن كل من يحبّك في العشيرة. هيا، اذهب وأحضر الوردة الحمراء.

وكان بجهيرا يقصد بالوردة الحمراء النار، فما من مخلوق في الغابة عرف اسمها الحقيقي، وعاش كلهم في رعب شديد منها، واخترعت مئاتُ الطرق لوصفها.

قال موجلي:

– الوردة الحمراء؟ تلك التي تنمو خارج أكواخ القرويين عند الغَسَق؟ سأحضر جزءًا منها.

أجاب بجهيرا فخورًا:

–هكذا يتكلم ابنُ البشر. تذكّر أنها تنمو في أوانٍ صغيرةٍ، فأسرع بإحضار واحدةٍ منها، واحتفظ بها حتى يحين الوقت.

قال موجلي:

– حسنًا، سأذهب من فوري.

وطوّق بذراعيه عُنق النمر الجميل، وتأمّل عينيه في عُمق، وقال:

– ولكن أواثق أنت من أن شيرخان هو السبب في كل هذا؟

فقال بجهيرا:

– أقسم بالقُفل المحطَّم الذي حررني أنني واثق، يا أخي الصغير، كلَّ الثقة.

وأجاب موجلي:

– إذًا فبحقّ الثور الذي فداني لأرُدنّ كيد شيرخان بمثله بل أكثر.

ونهض الصبيّ مبتعدًا، فرقد بجهيرا ثانيًا وقال يحدث نفسه:

– هكذا البشر، هكذا البشر تمامًا. لم يكن شيرخان في يوم ما أسفل منه يوم أراد صيدك منذ عشرة أعوام.

وجعل موجلي يجري في الغابة وقد ثار قلبه بينَ جنبيه. ووصل إلى الكهف عندما أقبل ظلام المساء، فأمسك عن الجري، ليهدئ أنفاسه المتلاحقة، ونظر إلى الوادي الخفيض.

وكانت الجراء الأربعة خارجَ وجارِها، ولكن الأم ذئبة رأته وهى جالسةٌ داخله، فعرفت من أنفاسه المضطربة أن أمرًا يزعج ضَفدعها الصغير. قالت:

– ما الذي يُقلقك يا بينّ؟

فأجاب:

– أقاويلُ تافهةٌ يرددها شيرخان. سأخرج الليلة إلى الحقول.

وانحدر مسرعًا بين الشجيرات إلى الغدير الذي يجري في بطن الوادي، وهناك أحجَم عن المسير قليلاً، فقد سمع أصوات العشيرة وهى تصيد. وتردد في أذنه نَبِيبُ وَعْل يطارد، أعقبها زمجرةٌ عندما استدارت الفريسةُ وهربت إلى الخليج. وتعالى عُواءٌ قاسٍ شريرٌ، وهتفت الذئاب الفتية تقول:

– أكيلا، أكيلا، دعواً الذئب الأوحد يستعرض قوّته، أفسحوا مكانًا لزعيم العشيرة، اقفز يا أكيلا!

ويبدو أن الذئب الأوحد وثب على فريسته فأخطأها، فقد سمع موجلي صرير أسنانه ثم عواء الألم الذي أطلقه عندما ركله الوعْل بساقه.

ولم ينتظر موجلي أكثر من ذلك، واندفع في طريقه جريًا، فتضاءلت الأصوات في أذنيه، وهو يتوغل في حقول القمح حيث يعيش القرويّون.

وقال لنفسه:

– لقد صدق بجهيرا.

واختفى بين أكداس عشب الماشية الجاف بجوار كوخ من الأكواخ. ثم قال:

– سيكون الغد يومي ويوم أكيلا أيضًا.

وألصق وجهه بجانب نافذة الكوخ، وجعل يتأمل نار الموقد. فرأى زوجة القروي تنهضُ، وتغذي النار بكتل سوداء. وعندما تنفس الصبح، وانتشر في الجوّ ضبابٌ باردٌ، رأى موجلي ابن القرويّ يأتي بسَلَّةٍ من الخيزران المجدول، وقد بُطِّن داخلها بالطين، وأخذ يملؤها بالفحم الأحمر المشتعل، ثم وضعها تحت عباءته، وخرج بها إلى حظيرة الأبقار.

فقال موجلي لنفسه:

- أهذا كلُّ شيء؟ إذا كان جَرْوٌ مثله يستطيعُ أن يفعل ذلك. فلا داعي للخوف.

وترك مكانه، وقصد الصبَّ، وانتزع الوعاء من يده، واختفى بين طبقات الضباب، وقال لنفسه:

- هؤلاء القوم يشبهونني كثيرًا!

ونفخ في النار كما رأى المرأة تفعل، واستطرد قائلاً:

- سيموت هذا الشيء إذا لم أطعمه.

وألقى فوق الفحم المشتعل أغصانًا صغيرة، وبعضًا من لِحَاءِ الأشجار الجافّة. وفي منتصف طريقه نظر إلى قمة التّل فرأى بجهيرا ينتظر، وقد تساقط الندى على جسده، فلمع كأنه اللؤلؤ.

فقال النمر:

– لقد أخطأ أكيلا صيده، وإن القوم استضعفوه، وكادوا يقتلونه أمس. لولا أنهم يريدونك أيضًا، وقد بحثوا عنك كثيرًا فوق التلّ.

ورفع موجلي إناء النار بين يديه وقال:

– كنت في الحقول، وأنا الآن على أتمّ استعداد لمقابلتهم، فانظر ما أحضرته معي!

فقال بجهيرا:

– حسنًا فعلتَ، وقد سبق أن رأيت رجالاً يضعون في هذا الإناء غصنًا جافًّا، فتتألقُ الوردةُ الحمراءُ عندَ طرفه. أأنت خائف؟

– لا، ولمَ الخوف؟ أذكرُ الآن –إن لم يكن حلمًا– كيف كنت أرقدُ قبل أن أصبح ذئبًا بجوار الوردة الحمراء، فتبعث في جسدي دفئًا ممتعًا.

وظلّ موجلي طيلة اليوم جالسًا في كهفه، وهو يذكي النيران، ويضع فيها الأحطاب الجافة، فتزيد تألقًا. واحتفظ بغصنٍ كبيرٍ ألقاه بجانبه، فلما جاءه تاباكي في المساء، ودعاه في قِحَةٍ وغلظةٍ إلى صخرة الشورى، ضحك الصبيُّ كثيرًا حتى تملك الخوف تاباكي، فابتعد مسرعًا؛ وسار موجلي بعد ذلك إلى الصخرة، وهو ما زال ضاحكًا.

وكان "الذئبُ الأوحدُ" أكيلا لا يرقدُ فوقَ صخرته بل بجوارها، إيذانًا بأن زعامة العشيرة قد غدت شاغرةً؛ في حين أن شيرخان جعل

يسير جيئة وذهابًا في جرأة عظيمة، تتبعه أكلة الفضلات من الذئاب بادية الغرور الكاذب. وجثم بجهيرا بالقرب من موجلي الذي أخفى إناء النار بين ركبتيه. وعندما اكتمل العدد تكلم شيرخان، وهو أمرٌ لم يكن يجرؤ عليه أيام مجد أكيلا وسلطانه.

وتمتم بجهيرا يهمس في أذن موجلي:

– ليس من حقه أن يتكلم. انهضْ وقلْ له ذلك، وسيغيظ كلامُك ابنَ الكلاب.

وقفز موجلي واقفًا، وهتف قائلاً:

– يا شعب الأحرار، بأيّ حق يتدخل بَبْرٌ في أمر زعامتنا؟! أيقود شيرخان العشيرة؟

أجاب شيرخان:

– إن الزعامة شاغرةٌ، وإنني دعيت إلى الكلام.

فقاطعه موجلي:

– ومن الذي دعاك؟ أنحن جميعًا بنات آوي حتى نَذلّ ونخضعَ لقصّابَ الماشية هذا؟ إن النظر في زعامة العشيرة من شأن العشيرة فقط.

وتعالت صرخات عدة تقول:

– صَهْ، يا جَرْوَ البشر. دعْه يتكلم، فقد تبع قانونا واحترمه، وهتف شيوخ في العشيرة قائلين:

– دعوا الذئب الميت يتكلم.

فقد جرت العادة أن الزعيم المخلوع يسمى بالذئب الميت حتى يموت، وهو عادة لا يبقى على قيد الحياة غير وقت قصير.

ورفع أكيلا الهرم رأسه في مشقة وصعوبة، وقال:

– يا شعب الأحرار، وأنتم أيضًا يا شعب بنات آوى، وأتباع شيرخان. عشرُ سنوات مضت وأنا أقودكم إلى الصيد، وأعود بكم منه ظافرين. لم يقعْ أحدكم خلالَ هذه الفترة الطويلة في شرك، ولم يفقد قدمًا ولا ذراعًا. ولكني الآن أخطأتُ فريستي، وكلكم يعرف حقّ المعرفة كيف دُبّرت هذه المكيدة؛ فلقد دفعتموني بمهارة إلى مهاة قويّة لتكشف عن ضعفي، ومن حقكم أن تقتلوني اليوم فوق هذه الصخرة، فمن منكم يرغب في وضْع حد لحياة الذئب الأوحد؟ إن دستور الغابة يحتم عليكم مقاتلتي واحدًا إثر واحد.

وخيم صمتٌ عميقٌ، فما من ذئب جرؤ على مقاتلة أكيلا حتى الموت.

وزأر شيرخان قائلاً:

– لا يهمّكم أمر هذا الأهتم الأبْلة، فجروُ البشر هو الذي يستحق الاهتمام، فقد امتدت به الحياة؛ وما كان ينبغي له أن يعيش. يا شعب الأحرار، إن الصبي صيدي منذ البداية، فسلموه إليّ. لقد سئمتُ

سخافةَ هذا الذئب البشري الذي عكرَ على العشيرة صفْو الغابة عشر سنوات. أعطوني جرو البشر، وإلا بقيت هنا أصطاد دونَ أن أمنحكم عظمة واحدة. إنه بشر وابن بشر ولذلك أكرهه أشدّ الكره.

وتعالت الأصوات تقول:

– بشر! بشر! ما لنا وللبشر؟! فليذهب من حيث أتى.

فصرخ شيرخان احتجاجًا وقال:

– أيعودُ من حيثُ أتى، ليثيرَ علينا القرويين جميعًا؟ لا، لا، بل أعطوني إياه، فهر بشر، ولا يستطيع أحدنا أن يواجه نظراتِه.

فرفع أكيلا رأسه ثانية، وقال:

– لقد شاركنا في الطعام وفي المنام، وخرج معنا إلى الصيد، ولم يُخالفْ قانون الغابة مرة واحدة.

وقال بجهيرا بصوته الناعم:

– وعندما أتى اشتريتُ حياته بثور. إن قيمة الثور تافهةٌ، ولكن شرف بجهيرا أمرٌ عظيم قد يقاتل من أجله.

فزمجرت الذئاب قائلة:

– ثور أكلناه من عشرة أعوام، أتهمنا عظام طال عليها البِلى؟

وأجاب بجهيرا وقد كشّر عن أنيابه البيضاء:

– أوَلا تهمكم الوعود؟ أأنتم شعب الأحرار؟

وصرخ شيرخان قائلاً:

– ليس لجرو بشري أن يعيش مع أهل الغابة، أعطوني إياه، أعطوني إياه.

وعاد أكيلا إلى الحديث:

– أتريدون قتله، وهو أخونا في كل شيء عدا الدم؟ لقد جرّبت كثيرًا، وعشت حتى سئمتُ العيش، فرأيت بعضكم قد تغير حتى صار من أكلة الماشية، والبعض الآخرَ يذهبُ تحت ستار الظلام، بوحي شيرخان وإغرائه، ويخطَف الأطفال من أبواب القرويين. هؤلاء إذن جبناء، وإلى الجبناء سأتوجهُ بالحديث. أعرف أنه يجب عليّ أن أموت، ولو كانت لحياتي قيمةٌ، لدفعتها ثمنًا لجرو البشر. ولكني سأقدم لكم عرضًا سخيًّا من أجل شرف العشيرة الذي نسيتموه وأنتم بغير زعيم. أعدكم –إذا تركتم جرو البشر يعود سليمًا إلى أهله– ألا أقاتلكم، ولا أرفع نابًا عليكم عندما تحين نهايتي، سأموت دون قتال، وبذلك أبقي للعشيرة ثلاثة أرواح على الأقل. وسينقذكم هذا الاقتراح من عار قتل شقيق لا عيبَ فيه ولا تثريب عليه: شقيق أيّده اثنان، وافتديتْ حياته طبقًا لقانون الغابة.

فزمجرت العشيرة قائلة:

– ولكنه بشر.

والتفّ معظم الذئاب حول شيرخان، فرقص ذيله طربًا.

فقال بجهيرا لموجلي:

– الأمر الآن بين يديك، فليس في وسعنا أن نفعل غيرَ القتال.

ونهض موجلي، وانتصبت قامته، وما زال وعاء النار بين قدميه، ثم رفع ذراعيه، وتثاءب أمام المجتمعين، ليظهر عدم اهتمامه، ولكنه كان في الواقع ثائرًا غاضبًا، إذ لم تكشف له الذئابُ قبل ذلك عن مبلغ كراهيتها له وحقدها عليه.

وهتف الصبي قائلاً:

– أصغوا إليّ، فلا حاجة لنُباح الكلاب الذي ترددونه. لقد سمعت منكم كثيرًا هذه الليلة، فقلتم إنني بشر، وإن كنت أفضّل أن أظل ذئبًا بينكم إلى نهاية العمر. لقد صدقتم، ولذلك لن أعتبركم إخوتي بعد اليوم، وسأسمّيكم كلابًا كما يقول البشر. ليس لكم أن تقرروا ما يجب أن تفعلوا أو ما لا يجب، فالأمر بين يديّ أنا، وقد عزمت على أن أطلعكم على حقيقة الأمر في وضوح، وأعلمكم أنني –أنا المخلوق البشري– قد أحضرت معي قليلاً من الوردة الحمراء التي تخافونها، يا معشر الكلاب.

وألقى وعاء النار إلى الأرض، فاشتعلت الأعشاب الجافة، وتراجع المجتمعون رعبًا أمام اللهيب المتراقص. ودفع موجلي غصنه الجاف في هذا اللهيب. فتألق طرفُه وقرقع، ثم جعل يطوح به فوق رؤوس الذئاب الخائفة.



قال بجهيرا في صوت خفيض:

- إنك سيّد الموقف، فأنقذ أكيلا من الموت. لقد كان أبدًا صديقك.

وألقى أكيلا العجوزُ، الذي لا يستجْد في حياته عطفًا ولا شفقة، على موجلي نظرة كلها رجاءٌ واستعطاف. ووقف الصبيّ متحفزًا، وقد تهدل شعرُه الأسود المتماوج فوق كتفيه، وانعكس عليه ضوء الغصن المشتعل الذي جعل الأشباح الجالسة تقفز وترتجف.

قال موجلي وهو يتأمل من حوله في بطء:

- حسنًا. أرى الآن أنكم -بلا ريب- كلابٌ. سأذهب عنكم إلى عشيرتي، ما دامت الغابة قد أغلقتْ في وجهي، وعليّ أن أنسى حديثكم وصحبتكم، ولكني سأكون أرحكم منكم، وعندما أعيش بين البشر لن أخونكم كما خنتموني، لأنني كنت أخاكم في كل شيء عدا الدم.

ودفع النار بقدمِه، فازداد اللهيب اشتعالا:

- لن تقوم حربٌ بيننا وبين عشيرتكم؛ ولكنْ عليَّ دينٌ يجب أن أوفيه قبل الرحيل.

وتقدم نحو شيرخان الذي كان يجلس أمام اللهيب ويُرمش، وأمسك

بشعر ذَقَنه الكثيف، فتبعه بجهيرا خشية وقوع مكروه. وهتف موجلي إلى البَبر.

– عندما يتحدث إليك أحد البشر انهض أمامه احترامًا. انهض، أيها الكلبُ، وإلا أطلقتُ اللهيبَ في شعرك هذا.

وخفض شيرخان أذنيه خوفًا، وأغمض عينيه، لشدة قرب الغصن المشتعل من وجهه.

وصاح موجلي:

– يقول قاتل البقر هذا إنه يريد أن يقتلني الآن، لأنه لم يستطع قتلي صغيرًا. إذًا فخذْ، وخذ، وخذ، فهكذا يضرب البشر الكلابَ ويؤدبونها. أقسم لو حركت شعرة واحدة من شاربك، أيها الأعرج، لأدفعنّ بالوردة الحمراء إلى بلعومك.

وانهال موجلي على شيرخان ضربًا بالغصن، فأنَّ الببر ألمًا وخوفًا، ثم قال الصبيُّ في تهكم:

– اذهب الآن، يا قطّ الغابة المدموغ، وتذكرْ أنني يومَ أعود ثانية إلى صخرة الشورى سيكون جلدك فوق رأسي. وليكنْ في علمكم، أيها الباقون، أن أكيلا لن يُقتلَ، وسيظل على قيد الحياة حرًّا آمنًا طليقًا، لأنني أريد ذلك، لن أترككم تجلسون هنا أكثر من ذلك، وقد دلْيتم ألسنتكم كأنكم شيءٌ مذكورٌ لا كلابٌ حقيرة أطرُدها متى أشاء.

هيّا، هيّا، اذهبوا، وانصرفوا.

وكانت النار تلتهب على الغصن في شدة، فراح موجلي يلوح بها يمينًا وشمالاً، فهربت الذئاب وهى تعوِي. وعلقَ شررٌ بشعر بعض الحيوانات فأجّجَ نارًا كادت تحرُق جلدها. وانصرفوا جميعًا، وهدأ المكان، ولم يبقَ غيرُ أكيلا وبجهيرا وعشرةُ ذئاب أخرى من أصدقاء الصبيّ.

وأحسّ موجلي شيئًا يوجعه في صدره؛ ولم يكن إحساسه قد أثير كذلك من قبل. وتلاحقت أنفاسه، وبكى، فتسارعت الدموع من عيْنيه وقال:

– ما هذا؟ لا أريدُ أن أتركَ الغابة، ولستُ أفهمُ معنى لما يتساقط من عينيّ. أتظن أنني أموتُ يا بجهيرا؟

فقال النمر:

– لا، أيها الأخ الصغير. هذه دموعٌ يعرفها البشر. لقد صرتَ رجلا، ولم تعد جروًا منذ الآن، وقد صارت الغابة مغلقة في وجهك، فدع الدموع تتساقط، يا موجلي، فما هى بأكثر من قطرات ماء تفيض بها العيون.

وأحسّ موجلي أن قلبه يتحطم بين جنبيه، فجلس وبكى كثيرًا! ولم يكن قد فعل ذلك من قبل.

وقال بعد أن هدأ:

– سأذهب إذًا إلى البشر، ولكني أحبُّ أن أودع أميّ أولا.

وقصد إلى الكهف الذي يعيش فيه الأب ذئب وأسرته، واحتضن الأم ذئبة، وبكى كثيرًا، فانتحب إخوته الجراء الأربعة في أسًى؛ وقال موجلي:

– أتنْسونني؟

– كلا، بل سنذكرك ما دمنا أحياء، تعالَ أحيانًا إلى التل ولنتحدث معك، وسنذهب نحن إلى الحقول، لنلعب معك في الليل.

وقال الأب ذئب:

– عُدْ إلينا سريعًا، أيها الضفدع الصغيرُ الحكيم. عُد سريعًا ولا تغبْ عنا، فأنا وأمُّك عجوزان.

وقالت الأم ذئبة:

– نعم، عُد سريعًا، يا صغيري العزيز، لأنني أحبك يا ابنَ البشر أكثر مما أحبّ جرائي..

فأجاب موجلي:

– سأعود حتمًا. سأعود لأفرش جلد شيرخان على صخرة الشورى. لا تنسوني؛ وقولوا لهم في الغابة أن يذكروني،

وكان الفجر قد بدأ يشرق، عندما انصرف موجلي، وهبط التل في طريقه إلى هذه المخلوقات الغامضة التي يسمونها بشرًا.

لما بدا الفجر مـن الـمشــارق وأمــنَ الـظـبيُ مـن الطوارق
ونبَّــتِ الوعـول مثنى وثلاثْ ما بين ذكران وما بين إناثْ
وجــاءت الظبــاءُ للـغـديــرِ لترتوي من مائه النَّميرِ
وقفتُ في ركـن مـن الأدغــال أرقــبُ مـا أبـصـره حيالي
ثـم تـســللتُ إلى إخــوانــي بُشْرى لكم، فرائسٌ دواني
فأقــبــل الجـمـعُ على الآثارِ وعــادَ بالصيد إلى الوجارِ
وارتـفــع الــعُــواء للــسمـاءِ ورددتــــهُ صيحة الأصداء
لما بدا الفجر عـوَى الذئــابُ ثم عـوى الـوثّـاب والديّابُ
عيـونـنــا تبصــر في الظّــلام أقدامنا أخفى من الأوْهام
الدغــل يطــويـنا كطيّ السرَّ وصوتنا يجهر عند الجهر
فأنصتوا إن عــوت الذئــابُ ورددت عــواءهــن الغابُ



٢

"كا" يخرج للصيد

تعاليم بالو

بقعُ جسمه يُسَرّ لها الفهد، وقرونه يفخر بها الجاموس،
كنْ نظيفًا،فقوّة الصائد في بريقِ جلده وجماله.
وإن وجدت الثَّور ينطَح بشدة،
أو الوعل ذا الجبهة الكثَّة يطعَن بشدة،
فلا تكُفَّ عن عملك لتخبرنا، فنحن نعرف الأمر من قديم.
لا تَقْسُ على جراء الغرباء، وعاملْهم كإخوة وأخوات،
فمهما صغُروا وضعفوا، فقد تكون الأمّ في قوة الدبّ.
يقول الجرو فخورًا بصيده الأول: إنني خير الجميع،
ولكن الغابة كبيرةٌ وقويّةٌ، والجرو صغير ضعيف،
فدعوه يفكر كما يحلو له، على ألا يفعل شيئًا.

* * *

وقعت حوادثُ هذه القصة قبل أن يُطرد موجلي من عشيرة الذئاب

سيوني، وقبل أن ينتقِم لنفسه من البَبر شيرخان. وكان بالو في ذلك الوقت يعلمه قانون الغابة؛ ولقد سُرّ الدبّ البنيّ العجوز من تلميذه، ووجده يختلف كل الاختلاف عن بقيّة تلاميذه، فصغار الذئاب تقنَع بتعلم ما يخصّ عشيرتها من قانون الغابة، وتهرُب من أستاذها متى قدرت على ترديد نشيد الصيد الذي يقول:

– أقدامٌ لا تحدث صوتًا، وعيونٌ ترى في الظلام، وأنيابٌ حادَّة بيضاء، وآذان تستطيع من الوِجار أن تسمعَ الرياح: كلها خصائص عشيرتنا ما عدا الضبع، وتاباكي بن آوى. وما أشدّ كراهتنا لهما!

وهذا النشيد يكفي الذئاب، أما موجلي فإنه من البشر، ولم يكنْ ذئبًا. فكان عليه أن يكون أعلم من الذئاب. ولذلك اعتاد أن يجلس كلّ يوم بين يديْ أستاذه بالو، ليتلقى عنه مختلف العلوم والدروس. وكان بجهيرا يسير في بعض الأحيان متهاديًا في الغابة؛ ويقبل على التلميذ وأستاذه، ليرى بنفسه مبلغ تقدم رَبيبه. فيسنُد رأسه إلى جذع شجرة، ويكرّ في هدوء، وموجلي يردد درسه على بالو. وكان الصبيّ يتقِن تسلق الأشجار، ويُحسن السباحة والجرْيَ فإن بالو لقَّنه قانون المياه، كما لقّنه من قبل قانون الغابة. وعلمه كيف يتبينُ الغصن النَّخِر من الغصن القويّ، وكيف يتحدّث إلى النحل البريّ بأدب، إذا ما اقترب من خلية من خلاياها، وعلم ما يقول "لمانج" الخفاش إذا أزعجه بين الأغصان،

وكيف ينذر الثعابين المائية قبل أن يقفز إلى الغدير للسباحة بينها؛ فإن مخلوقات الغابة تكرَه أن يقلقها أحدٌ، ولا تتردد في عقاب من يتطفّل عليها أو يزعجها. وتعلّم موجلي أيضًا نداء صيد الغرباء، الذي يجب أن يردده عاليًا لكلٍّ فرد من أهل الغابة إذا ذهب للصيد خارج منطقة عشيرته، ويظل يردده حتى يصله الجواب. ومضمون الجواب في لغتنا:

– دعوني أصيد هنا، لأنني جائع.

فيكون الجواب:

– صدْ إذًا للأكل لا للّهو.

وكان موجلي يحفظ الكثير عن ظهر قلب، فسئمت نفسه تكرار الشيء مرارًا، وتمرد على دروسه، فضربه بالو ليؤدبه، فجرى الصبيّ غاضبًا. فقال بالو لبجهيرا:

– إن جرو البشر لا يزال بشرًا مهما علمناه، ولذلك يجب علينا أن نحتاط فنجعله يحفظ كل قوانين الغابة.

وأجاب النمر –وكان يحبّ الصبي ويود لو استطاع أن يبالغ في تدليله والرفق به– قال:

– ولكن تذكّر أنه حديث السنّ، فكيف يستطيع رأسهُ الصغير أنْ يعي كل هذا الحديث الطويل؟

فقال الدبّ:

– إنه –وإن كان صغيرًا– عرضةٌ للقتل، وإنما أعلمه هذه الأمور خوفًا عليه من المخاطر. وإني لا أضربه إلا إذا نسىَ أو أهمل، وإذا ضربته كنتُ به رفيقًا.

وزمجر بجهيرا قائلاً:

– كنت به رفيقًا؟! أتعرف الرفق يا ذا اليد الحديدية؟ إن رفقك قد ملأ اليوم وجهه بالكدمات.

– لأن يمتلئ وجهه بالكدمات من شخص يحبه مثلي، خيرٌ له من أن يؤذيَ نفسه بجهله.

ثم استطرد بالو في حماسة:

– إنني أعلمه الآن "الكلمات العظمى" للغابة، وستكفل هذه الكلمات له الحماية بين الطيور، والزواحف، وبين ذوات الأربع. ما عدا بني جلدته. وفي استطاعته أن يطلب المساعدة من أهل الغابة جميعًا إذا تذكر تلك الكلمات، ولم ينسهمَا. ألا يستحق كل هذا تأديبًا قليلاً؟!

– حسنًا إذًا، ولكن احذر من أن تقتل جرْوَ البشر، فما هو بجذع شجرة تشحَذ عليها مخالبك الخشنة أخبرنى ، ما هى « الكلمات العظمى » التى تتحدث عنها ، وإن كنت في غير حاجة إليها، فإني أمنحُ المساعدة ولا أطلبها!

ومدّ بجهيرا إحدى أرجله، ونظر بإعجاب إلى مخالبه الزرقاء الداكنة

القاطعة؛ واستطرد قائلاً:

– ومع ذلك فإني أحبُّ أن أعرف هذه الكلمات.

– سأنادي موجلي، ليرددها في حضرتك إذا استطاع.

ورفع عقيرته مناديًا:

– تعالَ، أيها الأخ الصغير.

وانبعث من فوق رأسيهما صوتٌ غاضبٌ يقول:

– رأسي يَطنّ ألمًا كأنه خلية نحل.

وانزلق موجلي على جذع إحدى الأشجار، وهبَط بينهما، وهو في شدة الثورة والغضب؛ وقال عندما وقف على الأرض:

– لقد عدت من أجل بجهيرا، لا من أجل بالو المكتنز العجوز! وحزِن بالو لهذه الكلمات، وتألم منها، ولكنه أجاب:

– سيان عندي أنزلت من أجلي أم من أجل بجهيرا. أعدْ أمام بجهيرا كلمات الغابة العظمى التي لقَّنتك اليوم إياها.

– كلمات أيّ شعب؟ فللغابة لغات متعددة، وأنا أعرفها جميعًا.

– تعرف القليل لا الكثير. أترى يا بجهيرا هذا الجحود؟ إنهم جميعًا هكذا، فما عاد يومًا ذئب صغير ليشكرَ بالو العجوز على تعليمه. قلْ كلمات أهل الصيد إذًا، أيها العالمُ النحرير.

قال موجلي بلهجة الدب التي يستعملها أهل الغابة جميعًا:

– نحن من دم واحد، أنتم وأنا.

– حسنًا، والآن أعدْ علينا كلمات الطيور.

وأعاد موجلي قوله مع صفير الحدأة في نهاية الجملة. وهتف بجهيرا قائلاً:

– وكلمات الثعابين؟

فكانت الإجابة فحيحًا لا يمكن وصفه. وامتلأ موجلي زهوًا وخيلاء لمهارته، فراح يضرب الأرض بقدميه، ويصفق إعجابًا بنفسه، وقفز إلى ظهر بجهيرا، وجلس على جانب منه، وهو يركُل بعقبِه الجسد الأسود، وجعل يقلب وجهه في أشكال قبيحة، لغيظ بالو. فقال الدب في عطف:

– أهذا جزائي؟ أقسم أنك تستحق كدمةً صغيرةً جديدةً، ولكنك ستذكرني بالخير يومًا ما.

والتفت بالو إلى بجهيرا، وقص عليه كيف طلب للصبيّ "الكلمات العظمى" من "هاتي" الفيل، لأنه الخبير بكل هذه الأسرار، ثم أخذ يصف له كيف حمل الفيل موجلي، ودلاّه في الغدير، ليتعلم لغة الثعابين المائية؛ وبذلك صار الصبيّ في مأمن من حوادث الغابة، فما من ثعبان أو طير، أو حيوان يستطيع أن يؤذيه.

وانتفخت أوداج بالو زهوًا، وقال في كبرياء، وهو يُرَبِّتُ على بطنه الأشعر الكبير:

- إذًا، فلا خوف عليه من أحد.

قال بجهيرا بصوت خفيض:

- اللهم إلا من بني جلدته.

وهتف عاليًا بموجلي:

- رحمةً بضلوعي، أيها الأخ الصغير، فما هذا القفزُ والرقص؟!

فقد كان موجلي يجذب فرْوة بجهيرا، ويركله بقدمه، ليجذب سمعه إليه، فلما سكت الاثنان صرخ الصبيّ قائلاً:

- وستكون لي عشيرةٌ خاصةٌ أقودها بين الأغصان طيلة اليوم.

فأجاب بجهيرا:

- ما هذه السخافة الجديدة التي تحلُم بها؟

قال موجلي:

- نعم، وسنلقي الغصون والقاذورات على بالو العجوز، هكذا وعدوني.

فصاح بجهيرا:

- يا للضَّعة!

ونهض بالو، ودفع الصبيّ بأماميَّتيه وجرفه من فوق ظهر بجهيرا، فسقط موجلي بين قدمي الدبّ الغاضب الثائر. وقال بالو:

- إذًا، فقد كنت تتحدث مع "الباندارلوج"، مع شعب القردة!

والتفت موجلي، ونظر إلى بجهيرا، ليرى أهو غاضب كذلك، فوجد

عينيه جامدتين قاسيتين تنظران إليه في خُضرة اليشْب. ومسعه يقول:

– إذًا، فقد كنت مع القردة الرمادية، مع الشعب الذي يعيش دون قانون أو دستور، مع أكلة كل شيء، فيااللعار الكبير!

فأجاب موجلي، وهو ما زال ملقى على ظهره:

– عندما ضربني بالو، وأوْجع رأسي تركته وذهبت، فهبَطتِ القِردة الرمادية من فوق أشجارها، وأشفقت عليَّ.

وزمجر بالو في سخرية وقال:

– شفقة القردة التي تشبه هدوء المياه المندفعة من فوق الجبال! وحلاوة شمس الصّيف القائظ؟!! ثم ماذا، يا جرو البشر؟

– و... وأعطوني جوزًا، وأشياء لذيذة تؤكل، وحملوني بين أذرعهم إلى أعالي الأشجار، وقالوا إنني أخوهم دمًا، وأنا أشبههم تمامًا، وطلبوا أن أكون قائدهم في يوم من الأيام.

فقال بجهيرا:

– يكذبون كعادتهم، فليس لهم قائدٌ، ولن يكون ذلك أبدًا.

– ومضى الصبي قائلاً:

– واحتَفْوا بي، وبالغوا في إكرامي، ودعوني إلى زيارتهم ثانيًا، فلماذا لم تذهبوا بي من قبل إلى شعب القردة؟ إنهم يقفون على أرجلهم كما أفعلُ، ولا يضربونني بأيد خشنة غليظة كبالو، ويلعبون طيلة النهار.

دعني أنهض، دعني أنهض، يا بالو الكريه، سألعب معهم ثانيًا!
فعصَف صوت الدّب كالرعد قائلاً:

- اصغ إليّ يا جرو البشر. لقد علمتك قانون مختلف شعوب الغابة إلا القردة التي تعيش فوق أشجارها، فليس لهم قانونٌ إنهم طُرداء خارجون على القوانين، وليس لهم لغةٌ يتحدثون بها، بل يستعملون كلمات مسروقةً سمعوها وهم ينصتون، وينظرون، ويختلسون السَّمع من فوق الأشجار. طريقتُهم غير طريقتنا، فليس لهم قائدٌ يتزعمهم، ولا ذاكرةٌ تعي شيئًا. كلّ همهم أن يتحدثوا، ويفاخروا، ويتظاهروا بأنهم شعبٌ عظيمٌ يوشك أن يقوم بجلائل الأعمال في الغابة، ولكن سقوط جوزة واحدة يحول أذهانهم عما يفكرون فيه، فيضحكون، وينسوْن كلَّ شيء. إننا - أهل الغابة- لا نلقاهم، ولا نشرب حيث يشربون، ولا نذهب حيث يذهبون، ولا نصيدُ حيث يصيدون، ولا نموت حيث يموتون. أسمعتني قبل اليوم أتحدث عن الباندارلوج؟

وعمّ الغابة صمتٌ عميقٌ، فهمسَ موجلي مجيبًا:

- لا، لم أسمعك:

- إن أهلَ الغابة يحتقرونهم، فلا يتحدثون عنهم، ولا يفكرون فيهم، لأنهم كثيرو العدد، شرّيرون قَذرون لا يسْتحون. ورغبتهم الكبرى -إن كانت لهم رغباتٌ- أن يثيروا اهتمامنا، فننظر إليهم،

ونلحظَهم بعنايتنا، ولكننا لا نعيرُهم التفاتًا، ولا ننظر إليهم، حتى عندما يُلقون فوق رءوسنا الجوز والقاذورات.

ولم يكد ينتهي من حديثه حتى انهال سيلٌ من الجوْز، وأوراق الأشجار، والغصون. وتردد في الجو سُعال القردة وضحكها، وهي تقفِز بين الغصون غاضبةً.

قال بالو:

– تذكر جيدًا أن شعبَ القردة محرَّمٌ على أهل الغابة.

وقال بجهيرا:

– نعم محرّم، ولكن كان من واجب بالو أن يُنذرك.

فقال بالو:

– أنا، وكيف يكون ذلك، وما دار بخلدي أبدًا أنه سيلعبُ مع هذه القاذورات؟

وانهال من الأشجار سيلٌ جديدٌ، فابتعد الاثنان، ومعهما موجلي ولقد صدق بالو فيما قاله عن شعْب القِردة: فهي تسكُن أعاليَ الأشجار، ولما كان من النادر أن ترفع الوحوش رءوسَها، وتنظر إلى أعلى، فقد تباعد الفريقان، ولم يعترضْ أحدهما طريق الآخر. وثارت القردةُ للإهال الذريع الذي تناله من أهل الغابة، ولذلك كانت تعذب كل ذئب مريض أو نمر جريحٍ تعثُر عليه، وتُلقي على سبيل اللهو الأغصانَ والجوز فوقَ

رءوس من تحدثه نفسه بالمرور تحت الأشجار أملا في إظهار مهارتها ورغبةً في استرعاء الأنظار إليها، ثم تصرُخ في أصواتٍ قبيحةٍ، وتدعو أهل الغابة إلى تسلق الأشجار لقتالها. وتقوم بين القردة معارك حامية الوطيس، فيقاتل بعضها بعضًا دون داعٍ للقتال، وعندما تنتهي المعركة تنصرف القردة، وتترك قتلاها على الأرض، ليراها سائر الحيوانات.

وتحسُّ القردةُ بنقصها، ولذلك فهي تفكر دائمًا في أن يكون لها زعيمٌ يقودها ودستور يسيرها، كغيرها من سائر الحيوانات، ولكنها لا تنفذ فكرتها أبدًا، لأن ذاكرتها الضعيفة لا تحتفظ بشيء، وتنسى في غدها ما كان في يومها. وتعتذر القردة عن نفسها بقولها:

– ما يفكر الباندارلوج فيه الآن ستفكرُ الغابةُ فيه بعدُ.

ويهدئ هذا القول خاطرَها.

ولم تكن في نية القردة أن تفعل أكثر من ذلك، ولكنْ بدتْ لواحد منها فكرةٌ ظنَّها ذكيةً، فقال للآخرين إن العشيرة تكسب كثيرًا لو احتفظتْ بالصبيّ، فهو يجدل الأغصان بمهارة، للوقاية من شر الهواء والأمطار، وباستطاعته أن يعلمهم الكثير من هذه الفنون.

وكان موجلي ابنَ حطاب، ولذلك ورث غرائز عدة، واعتاد أن يجدلَ الأغصانَ الدقيقةَ ويصنع منها أكواخًا صغيرة. ورأته القردةُ من فوق أشجارها، وراقبته في أثناء عمله، واعتبرت ما يصنعه أمرًا عجيبًا

خارقًا، فعقَدت العزم على أن يكونَ للبندارلوج زعيمٌ كما للعشائر الأخرى، فتصير أكثر أهل الغابة حكمةً وعقلاً، وتلحظها الحيوانات، وتغار منها.

ولما استقر رأيهم على ذلك جعلت تترصد للصبيّ إذ يسيرُ معَ بالو وبجهيرا، وسارتْ ورائهم خفيةً في الغابة إلى أن حان وقت القَيلولة، ورقَد الثلاثةُ للراحة، وكان الصبيّ يحسُّ بعِظم خطئه بعد تأنيب الدب والنمر، وخجل من نفسه، ولما نام بين بالو وبجهيرا كان في عزمه أن ينفُض يديه من شعب القردة وألا يجعل بينه وبينهم اتصالاً.

وكان أول ما أحس به بعد غفْوته أن أمسكت بأطرافه أيدٍ صغيرةٌ جامدةٌ قويةٌ، رفعته في الهواء، وتسلقت به الأشجار؛ وأحسّ أوراقها وأغصانها تضرب وجهه. فلما نظر إلى أسفل، رأى من بين الأغصان المتراقصة بالو، وهو يوُقظ أهلَ الغابة جميعًا بقِهْقاعه، كما رأى بجهيرا يقفز نحو جذع الشجرة، وقد كشَّر عن أنيابه، فضحكت القردة انتصارًا، وقفزت إلى أعلى الغصون التي لا يجرؤ بجهيرا على الوصول إليها. وقالت في سرور:

– لقد لحظنا بجهيرا. إن أهل الغابة يعجبون بمهارتنا ودهائنا.

وأسرعتْ في الهروب. وهروبُ القردة فوق الأشجار أمرٌ يعجَزُ الإنسان عن وصفه، فلهم طرقٌ كثيرةٌ معروفة يتنَقَّلون فيها على الغصون إلى أعالي التلال، وإلى أسافلها. وترتفع هذه الطرق من خمسين إلى سبعين قدمًا

فوق سطح الأرض، وبفضلها تستطيع القردة الرحيلَ حتى أثناء الليل إذا اقتضى الأمرُ.

وقبض قردان قويّان على ذراعي موجلي، وقفزا به بين رءوس الأشجار، وقد بلغت كل قفزة عشرين قدمًا. ولو كانا وحدهما لضاعفا السرعة، ولكن حمْل الصبيّ عاقهما كثيرًا، ودارت رأسُ موجلي، وأوشك أن يُغمى عليه، ومع ذلك لذّت له هذه السرعة الجنونيةُ، ولو أن نظرته إلى الأرض البعيدة كانت تُخيفه وترعبهُ، وكانت الحركاتُ العنيفة، والوقفاتُ المفاجئةُ، بعد قفزات وساعة تكاد تخرِجُ قلبه من بين جنبيه.

وظل القردان يحملانه ويقفزان به، فيرتفعان به إلى أعلى الشجرة حتى يخيلُ إليه أن أدق الغصون يتحطَّم تحت أقدامهما، وبعد سُعال وشَهقات وضحكٍ يقفزان به إلى شجرة أخرى، وينحَدران به إلى أسفل أغصانها. ويعلوان به في بعض الأحيان الأشجارَ السامقة، حتى يكشف الصبيّ من فوق رءوسها أميالا من الغابة الخضراء الساكنة، ثم تضرب الأغصان والأوراق وجههُ، ويجد نفسه على مقربة من متساوى الأرض. هكذا راحت القردةُ تقطع طرقاتها الخاصة بين الأشجار، وهى تضحك وتقفز وتشهقُ، وموجلي أسيرٌ بينها.

وكان موجلي في بادئ الأمر يرتعدُ خوفًا من السقوط، ثم تلكه غضبٌ جامحٌ شديدٌ، ولكنه كان يعرفُ عقم المقاومة، فاستسلم للتفكير.

واهتدى إلى رأي ثاقب، وهو أن يرسل كلمة إلى بالو وبجهيرا، اللذين تخلفا عن اقتفاء أثره بطبيعة الحال، لعجزهما عن مجاراة القردة في سرعتها. ولم ينظر إلى أسفل بحثًا عمَّن يحمِل رسالته، فقد كان لا يستطيع أن يرى من هذا الارتفاع العظيم غيرَ الأغصان، ولذلك رفع أنظاره إلى السماء فرأى في الأفق الأزرق البعيد "ران" الحدأة، وهي تدور وتتأرجحُ في الهواء، وتراقب الغابة بعينها الحادة، أملاً في أن ينفُقَ حيوانٌ، فتأكله. وتبيَّنتْ ران أن القردة تحمل شيئًا، فهبَطت مئات الأمتار، عسى أن يكونَ ذلك الشيء يصلح للأكل. وأطلقت صفيرها العجيب عندما رأت موجلي يُنتزع من شجرة إلى أخرى، وسمعته يناديها قائلاً:

– نحنُ من دم واحدٍ، أنت وأنا.

وأطبقت الغصون المضطربة على الصبيّ، فاختفى عن أنظارها، ولكنها أسرعت إلى الشجرة التالية، لترى وجهه الأسمر يظهر لها ثانيًا، وهتفَ بها موجلي قائلاً:

– تتبعي طريقي، وأخبري بالو، وعشيرة سيوني، وبجهيرا، ونادي بالنبأ عند صخرة الشورى.

– باسم مَنْ أخبرهم، يا أخي؟

ولم تكن ران قد رأت الصبيّ من قبلُ، وإن سمعت الكثير عنه فقال لها :



– باسم موجلي الضِّفدع، أو جرْو البشر كما يُطلقون عليّ، سيري ورائي واعرفي طريقي.

وانقلبت كلماته الأخيرة صرخَات، عندما تطوحت به القردة في الهواء، فأطرقت رَانُ، وارتفعت إلى السماء ثانية، وأمعنت في الارتفاع حتى بدت من عليائها كأنها ذرة تراب، وظلتْ ترقبُ بعينيها الحادتين الأشجار، وهي تتراقص تحتَ أقدام القردة وهم يرتحلون بموجلي.

وقالت الحدأة في سخرية:

– لن يذهب الباندارلوج بعيدًا، فما اعتادوا أن ينفذوا رأيًا بدا لهم من قبلُ. إن شعب القردة يتطلع إلى كل جديد، وأعتقدُ أنهم هذه المرة يتطلعون إلى ما يجلِب عليهمُ المتاعب، ويصبُّها فوق رءوسهم، فما بالو بالطير الصغير، وباستطاعة بجهيرا أن يقتلَ غير الماعز.

ورفرفت بجناحيها، ورفعت رجليها إلى الخلف، وحلقت في الهواء تنتظر.

وكان بالو وبجهيرا في ذلك الوقت يتميزان من الغيظ، وتسلق النمِرُ الأشجار في اضطرابه بما لم يسبِقْ له به عهدٌ من قبل، ولكن الأغصان الرفيعة كانت تتحطم تحت ثقله، فيسقُط إلى الأرض، وقد امتلأت مخالبه بقشور الجذوع. وزأر غاضبًا، ونظر إلى بالو الذي كان يجري في ثقل، ليدرك القردة وقال له:

– لماذا لم تحذرْ جرو البشر؟ أيّ فائدةٍ جناها من الضربات التي كنت تهوِي بها عليه؟! إنك لم تنذره من قبل هذا البلاء الذي وقع فيه.

فأجاب بالو لاهثًا:

– أسرع، أسرع، فما زال في مقدورنا أن نصل إليهم.

– بهذا البطء؟ إن سرعتك يا معلِّم القانون، ويا ضارب الصغار، لن تُتْعِب بقرة جريحة! وميلٌ واحدٌ من هذا التدحرج قد يفجُرُ بطنك، فاجلسْ ساكنًا، ودعنا نفكر. ليس هذا وقت تعقُّبهم، فقد يسقطونه من بين أيديهم إذا اتَّبعناهم من قريب.

فقال بالو:

– ومَنْ يدرينا؟ لعلهم قد أسقطوه بعد أن تعِبوا من حمله؟! عاقبني بما تشاء: ضَعْ ميِّت الخفافيش فوق رأسي، أعطني عظامًا سوداء آكلها، وادفعني إلى خلايا النَّحل البري، ليلسعَني حتى الممات، وبعد ذلك ادفني مع الضباع! فإني أتعس الدببَة، وأشقاها. آه يا موجلي! لماذا لم أحذرْك من شعب القردة بدل أن أحطم رأسك بكلماتي؟ ولعل ضربي الأخير قد أطار الدرس من رأسك، فتكون الآن وحدك في الغابة، وقد نسِيت الكلمات العظمى!

ووضع الدبّ كفيه فوق أذنيه، وتدحرج على الأرض، وهو يئن حزنًا وألمًا، فنفَد صبر بجهيرا، وقال له:

– لقد استطاع منذُ وقت قصير أن يُعيد الكلمات كلها صحيحةً. أقسم لك يا بالو أنك قليلُ العقل، خفيفُ القَدرْ. ماذا تقول الغابة، لو رأتني أنا –النمر الأسود– أتدحرجُ وأصرخ هكذا كما يفعل "إيكي" القنفُذ؟

فأجاب بالو:

– لا يهُمُّني ما تقوله الغابةُ، فقد يكون موجلي ميتًا في هذه الساعة.

فقال بجهيرا:

– لا داعي للخوف عليه، إلا إذا كانوا قد أسقطوه إلى الأرض عمدًا يقصدون العبثَ واللَّهو، أو لعلهم قتلوه قطعًا للوقت. إن جرو البشر ماهرٌ ذكيٌّ، فضلا عن نظراته التي تخيفُ أهل الغابة جميعًا، ولكنه الآن تحت رحمة الباندارلوج، وذلك شرٌّ عظيمٌ، فهم يسكنون أعالي الأشجار، ولذلك لا يخافون أحدًا من عشيرتنا.

ولعِق بجهيرا كفيه في تفكير، فاعتدل بالو، وهتف في سخرية يقول:

– يا لي من دبٍّ ثخين غبي لا يصلحُ لشيء، لقد صدق هاتي الفيل عندما قال: إنّ لك مخلوقٍ من يخشاه. والباندارلوج يخافون "كا" ثعبان الصخرة، ففي مقدوره أن يتسلق الأشجار مثلهم، ويسرق صغارهم في الليل، إنَّ ذيولهم الشريرة لترتعد خوفًا عند ذكر اسمه. يا لي من غبي إذ نسيت ذكر الثعبان "كا". فدعني أذهب إليه.

فأجاب النمر:

– وماذا يستطيع أن يفعل من أجلنا؟ إنه من الزواحف، ولا ينتمي إلى عشيرتنا، فضلا عن نظراته القاسية الشريرة.

فأجاب بالو:

– ولكنه عجوزٌ ماكرٌ لا يشبَعُ أبدًا، فعده بماعزٍ كثيرٍ يستجب لدعوتنا.

ولم يكن بجهيرا يعرفُ كثيرًا من أمر "كا" ولذلك تشكك في قول صديقه، وأجاب:

– أتعرف أنه ينام شهرًا كاملاً بعدَ كل وجْبَة يتناولها؟ قد يكون الآن نائمًا، لنفرضْ أنه مستيقظٌ، فماذا نفعلُ لو رفض عرضي، وقال إنه في غنًى عنَّا، وعن ماعزنا؟

فقال بالو:

– في هذه الحالة نستطيع –وكلانا صائدٌ قديم– أن نُقنعه.

وحكَّ بالو كتفه الغبراء في جسد صديقه النمر، وسار الاثنان يبحثان عن "كا" ثعبان الصخرة الكبير، وما زالا حتى وجداه بعد جهدٍ متمددًا فوق حافة صخرة كبيرة، وهو يستمتع بشمس العصر الدافئة، ويتأمل معطفه الجديدَ معجبًا فقد اعتكف خلال الأيام العشرة الأخيرة، لتغيير جلده، وبدا لهما رائعَ الجمال، وهو يحرك رأسَه ذا الأنفِ المدبَّبِ،

ويلوي جسده الذي يبلغُ طوله ثلاثين قدمًا في دوائر عجيبة، ويُنضنض مفكرًا في عشائه القريب.

وقال بالو عندما رأى المعطف الأصفر الجديد:

– إنه لم يأكل بعدُ، فاحترس يا بجهيرا، فهو عادةً ضعيفُ النظر سريعُ الانقضاض بعد تغيير جلده.

ولم يكنْ "كا" ثعبانًا سامًّا، بل كان يحتقرُ الثعابين السامة، ويتهمها بالجُبن. وكانت قوته تكمُنُ في شدة قبضته، فإذا التف بجسده الضخم على أي مخلوق كان موتُه حتمًا مقضيًّا.

وجلس بالو على عجُزه، وقال للثعبان:

– أرجو لك صيدًا موفقًا، يا صديقي.

وكان "كا" ضعيفَ السمع كسائر أبناء فصيلته، ولذلك لم يتبين التحية في بادئ الأمر، فالتف حول نفسه، وخفض رأسه، ونهَض استعدادًا للطوارئ! وقال في حَذَر:

– صيدٌ موفق لنا جميعًا. آه، هذا أنتَ يا بالو، ماذا تعفل هنا؟ صيدٌ موفقٌ، يا بجهيرا. واحدٌ منا على الأقل جوعانُ. أتعرفان مكان صيد قريب، مكان وَعِلٍ صغيرٍ أو ظبيٍ؟ إنني جائعٌ، وأمعائي فارغةٌ مثل بئر جافَّة.

ولم يشأ بالو أن يتعجل "كا"، فقد كان يعرف مدى قوته، وقدر

خطورته، فأجاب وهو يتظاهر بعدم الاهتمام:

– جئنا للصيد.

فقال "كا":

– فلأصحَبْكما إذًا إذا سمحتما، فضربةٌ صائبةٌ، أو أخرى خائبة لا تهُمُّ بالو وبجهيرا! أما أنا فعليّ أن أنتظرَ في ممرات الغابة أيامًا عِدَّةً، وأتسلق الأشجار نصفَ ليلة على الأقل. بحثًا وراء قرد صغير أقتنصه. والأغصانُ الآن صغيرةٌ أو نخرةٌ، ولم تعد قويَّة كما عهدتها أيام كنت صغيرًا.

وأجاب بالو:

– قد يكون لثقلك العظيم أثرٌ في ذلك.

فقال "كا" في تيه ملحوظ:

– إن طولي معقولٌ، ولكنها غلطةُ الغصون الصغيرة الجديدة التي نمت فوق الأشجار. لقد كدت أسقطُ في صيدي الأخير، وكنت لم ألفَّ ذيلي جيدًا حولَ الشجرة، فأيقظ صوت تدحرجي شعبَ القردة، فانهالوا عليّ بأقبح الشتائم.

وتمتم بجهيرا كأنه يردد حديثًا سبق له أن سمعه:

– "دودةُ الأرض الصفراءُ الزاحفة!"

وفَحَّ الثعبان عند ذلك قائلاً:

– أسمعتهم يقولون ذلك عني؟

– سمعتهم يقولون شيئًا من هذا القبيل، ولكننا لم نُعرْهم التفاتًا. واستطرد في صوت ناعم:

– إنهم يقولون كثيرًا، وأنت تعرف أن الباندارلوج لا يستحُون، ويذهبون في قولهم إلى أنك فقدت أسنانك، ولم يعد في مقدورك أن تصيد شيئًا أكبر من جَدْي رضيع، لأنك تخاف قرونَ الماعز الكبير.

ومن النادر أن تظهر الأفاعي، ولا سيما ثعبان الصخرة، غضبها؛ ولكن بالو وبجهيرا استطاعا أن يريا عضلات فكَّيْ "كا"، وهى تضطرب وتنتفخ عند ذلك في غضب.

وقال الثعبان:

– لقد رحَل شعبُ القردة من هذا المكان، وعندما خرجت اليوم إلى الشمس سمعت صياحهم بين الأشجار.

فأجاب بالو:

– ونحن الآن في أثر الباندارلوج.

واحتبست الكلمات في حَلقه، فقدْ تذكَّر أن هذه هى المرةُ الأولى التي يُعنى فيها أحدٌ من أهل الغابة بأعمال القردة، وحركاتها.

وتعجَّب "كا"، فقال في أدب:

– إذن فالأمر جدٌّ خطيرٍ حتى إنه دفع زعيمين كبيرين، وصائدين

قادرين إلى تتبع آثار الباندارلوج .

فأجار بالو:

– أبدًا، فلستُ أكثر من مدرس أبلهٍ عجوزٍ يعلم القانون لجراء ذئاب سيوني، أما بجهيرا...

ولم يكن النمر يؤمن بالتواضع، فضمَّ فكيه فجأة، وقاطع بالو، وأتمّ جملته قائلاً:

– نعم، أما بجهيرا فهو بجهيرا. المشكلة يا "كا" هى أن لصوص الجَوْز، ولاقطي أوراق النخيل، قد سرقوا منا جَرْوَ البشر، وأظنك سمعت به.

فأجاب "كا":

– سمعت بعض الحديث من إيكي ذلك الذي تملؤه أشواكه فخرًا وتيهًا، فقد حدثني عن بشر يعيش مع عشيرة الذئاب، ولكني لم أصدقه، لأن إيكي يروي قصصًا لا يعرف حقيقتها، وهو ينقلها مشوهةً.

فأجاب بالو:

– ولكن هذا الحديث حقيقة، وهو خير جرو بشري في الحياة، بل أفضلُ وأشجعُ بني البشر. هو تلميذي، وسيرفع اسمي عاليًا في الغابة، فضلاً عن أنني أحبّه، يا "كا".

وفَحَّ الثعبان عند ذلك وحرّك رأسه من ناحية إلى أخرى، وقال:

– لقد عرفت الحبّ أيضًا، ولديّ من القصص ما أستطيع أن أسرده عليكما:

فقال بجهيرا على البديهة:

– ولكن قصصًا كهذه تحتاج إلى ليلة صافية نكون فيها شباعًا، فنتمكن منَ الإنصات إليك، والثناء عليك كما يجب، أما الآن، فجرو البشر تحت رحمة الباندارلوج، ونحن نعرف أنهم لا يخافون أحدًا من أهل الغابة غير "كا".

فأجاب الثعبان:

– صحيح أنهم لا يخافون غيري، ولهم كلُّ العذر. والقِردةُ أغبياء كثيرو الثرثرة مغرورون، ومع ذلك فما وجود البشر بين أيديهم بالأمر المأمون! فهم يلتقطون الجوزة، ويسأمونها، فيُلقون بها إلى الأرض. ويحملون غصنًا نصف يوم، قاصدين أن يعملوا شيئًا معينًا، ثم يحطمونه نصفين. هذا البشرُ ليس في موقف يحسد عليه، ولقد قالوا إنني سمكةٌ صفراءُ، أليس كذلك؟

فقال بجهيرا:

– بل قالوا: "دودة" يقصدون الدودةَ، الدودةَ الأرضية، فضلا عن أمور أخرى أخجَلُ من ذكرها أمامك.

فقال "كا" في غيظٍ شديدٍ:

– إذًا يجب أن نعلمهم كيف يتحدثون عن سادتهم. يجب أن نساعد ذاكرتهم القليلة الحائرة. خبراني، أين ذهبوا بالجرو؟

قال بالو:

– ذلك في علم الغابة. وظننا أنك تعرف مكانهم، يا "كا"،

– أنا؟ كيف؟ كل ما في الأمر أنني أقتنصهم عندما يعترضون طريقي، ولكني لا أسعى وراء الباندارلوج، فما أنا بصائد الضفادع، ولا لاقط العفن الذي يطفو فوق المستنقعات!

وتردد صوت يقول:

– إلى أعلى، إلى أعلى. هيا، انظرْ إلى أعلى، يا معلمَ ذئاب سيوني.

ورفع بالو رأسه بحثًا عن مصدر الصوت فرأى رانَ الحدأة، وهي تنحدر في الجو لتقترب منهم، وقد لمع جناحاها المرتفعان تحت أشعة الشمس.

وكان المساء يقترب سريعًا، وأزِف موعد نوم ران، ومع ذلك ظلت تحلق فوق الغابة بحثًا عن الدبّ، وعاقتها الأغصان المتشابكة، ولكنها ما زالت تبحثُ حتى اهتدتْ إليه.

وسألها بالو:

– ماذا تريدين؟

فأجابت:

– رأيت موجلي مع شعب القردة في غُصون الأشجار، وطلب مني أن

أخبرك عن مكانه، فتتبعتهم، وظللت أراقب مسيرهم، حتى وصلوا به إلى العرين البارد "مدينةِ القردة" وراء النهر. إنهم هناك الآن، ولا يعرف أحدٌ إلى متى يبقَوْن بمدينتهم، فقد يلازمونها عشرة أيام وقد يرحلون عنها بعد ساعة، ولذلك كلفتُ الخفافيش مراقبتهم، وعدت سريعًا لأخبرك. هذه رسالته أبلغتكما، فوداعًا وصيدًا موفقًا.

هتف بجهيرا:

– فلينعمْ فُوكِ بطعام كثير، وعيناك بنوم عميق. سأذكرك، يا خير الحِدأ. في صيدي القادم، سأضع رأس فريستي جانبًا لتهنئي بها وحدك!

– لم أفعلْ ما يستحقُّ الشكر، بل لم أفعلْ ما يستحقُّ الذكر؛ لقد كان الصبيّ يعرف "الكلمات العظمى"، فحُقَّ عليّ أن أساعده.

وقفلت ران عائدة إلى عشها.

وانتفخت أوداج بالو زهوًا، وقال:

– لم ينس استعمال لغة الحدأ. أليس عجيبًا حقًّا أن يذكر صغير مثله الكلمات العظمى للطيور، والقردة طائرة به بين الأشجار؟!

وأجاب بجهيرا:

– لأنك كنت في تلقينه شديدًا، وأنا ما زلت بنجابته فخورًا، وعلينا أن نذهب على جناح السرعة إلى مدينة القردة.

وكان كلهم يعرف أين تقع هذه المدينة، وإن لم يذهب إليها من أهل الغابة غيرُ القليل، فهذا المكان أو ”العرين البارد“ كما يسمُّونه مدينةٌ قديمةٌ، هجرها سكانها من زمن طويل، فتداعت أبنيتها، وطغت عليها الغابة، وظلت خاليةً، فمن النادر أن تأوى إليها الوحوش، وخصوصًا الفصائل القنَّاصة منها، فالوحوش لا ترتاح إلى مكان سبق أن طرقه الإنسان، وحلت القردة بالمدينة المهجورة، وطال عيشها بها على غير عادتها في الأماكن الأخرى، فرغِبن أهل الغابة عنها، وأغفَلوا أمرها، وكانت الحيوانات لا تقترب منها إلا في وقت الجفاف، لترتوي من المياه المتجمّعة في خزاناتها ومستودعاتها.

قال بجهيرا:

– ستقتضي الرحلةُ مسيرة نصف ليلة إذا أسرعنا الخُطى وبذلنا كلّ ما في وُسعنا.

وتبدى الجد في عينيْ بالو، وأجاب في قلقٍ:

– سأسرع قدر إمكاني.

فقال النمر:

– ونحن لا نستطيع انتظارك، فاتبعنا يا بالو، فعلينا أنا ”وكا“ أن نسير حثيثًا.

فقال ”كا“:

– في مقدوري أن أحرز قصب السَّبْق في مسيرنا.

وبذل بالو جُهدًا كبيرًا في الإسراع، ولكنه اضطر للجلوس لاهِثًا فتركاه خلفهما، ليلحق بهما بعد، وتقدم بجهيرا إلى الأمام في خطى النمر السريع. ولم يقل "كا" شيئًا، بل زحف في سكون، وانساب في سرعة، فلم يستطع النمر أن يسبقه مع كل ما بذله من الجهد الشديد. وما زالا يسيران، حتى وصلا إلى نُهيرٍ، فقفز بجهيرا قفزةً جعلته على الشاطئ الثاني، وبذلك سبق الثعبان الذي اضطر إلى السباحة وأخذ يشقّ المياه برأسه؛ فلما استوى على الشاطئ الثاني، فوق أرض مستوية، لم يلبث أن لَحِقَ بالنمر.

وأقبل الغسقُ، فقال بجهيرا:

– أقسم بالقُفل المحطم الذي حررني إنك سريع المسير!

فأجاب "كا":

– إنني جائعٌ، وبلغ من وقاحتهم أنهم أسمَوْني الضفدع الأبقعَ.

– بل: الدودة، الدودةَ الأرضيةَ الصفراء الجبانة.

– سيَّان عندي، هلمّ. فسر بنا، دعنا نذهب.

وانساب الثعبان، وكأنه ماءٌ يتدفقُ على الأرض تدفقًا، وجعلَ يبحث بعينيه الحادتين عن أقصر طريق، فيسلكه.

أما القردة فقد كانت في المدينة المهجورة لا تذكر أصدقاء موجلي، ولا تفكر في إمكان حضورهم من أجله؛ وقد تملكها الزهو، لأنها تمكنت من حَمل الصبيّ إلى تلكَ المدينة الخربة، فأعجبت بعملها وألهاها ذلك عن التفكير في شيءٍ سواه. ولم يكن موجلي قد رأى ذلكَ المكانَ من قبلُ، وبدتْ له المدينةُ الهنديةُ جميلةً رائعةً على الرغم من دمارها وخرابها.

وكان أحد ملوك الهند قد شيَّد هذه المدينةَ منذ أقدم العصور، وأقامها فوقَ تلّ صغيرٍ؛ ثم هجرها سكانها، فظلت خاوية على عُرُوشها طيلةَ هذه الأعوام. وعلى الرغم من كرّ الأعوام ومر السنين كان من السهل تتبّعُ طرقاتها المعبدة التي تؤدي إلى أبواب ضخمة لم يبقَ منها غيرُ حطام عالق بمفاصل حديدية يغطِّيها الصدأ. ونمت الأشجار الكبيرةُ داخلَ الأسوار، وخارجها؛ وتداعت آطامُها، وتآكلت جدرانها؛ وتدلت النباتات البريَّة الزاحفة من نوافذ القلاع، وانحدرت فوق الجبال في حُزَم كبيرة.

وكان في أعلى المدينة قصرٌ لا سقف له، فناؤه ونافوراته من المرمر الذي تحطم، وتلطَّخ بمختلف الألوان ما بين أحمر وأخضر. ورثَّت الأوتادُ الحجرية الضخمةُ التي كانت تقيَّدُ بها فِيَلةُ الملك، وتفتَّتت وانزاحتْ من مكانها منذ نمت الشجيراتُ والأعشابُ بينها.

وكان الإنسان يستطيع أن يرى المدينة القديمةَ من شرفة ذلك القصر،

وقد اصْطفَّتْ منازلها المتراصةُ المتداعيةُ، وهى تبدو في ضوء القمر كأنها أقراص شهد داكنةٌ. وكانت بها كذلك بقايا تماثيل الآلهة في وسط مربَّع تتفرّع منه طرقاتٌ أربعة، وفيها كثيرٌ منَ الحفرات والدّمن التي كانت آبارًا عامة في يوم من الأيام، وكثيرٌ من قباب المعابد المتداعية، وقد نَبتت أشجارُ التين البري على جوانبها.

وكانت القردة تتخذُ هذه المدينةَ موطنًا لها، وتتظاهرُ باحتقار من يعيشُ بين الأشجار من أهل الغابة، ولكنها مع ذلك كانت لا تعرف شيئًا عن حقيقة هذه المباني، أو لا تدري كيف تستفيدُ منها، فكانت تجلس في بهو مجلس الملك حلقة داخل حلقة، وهى تقلد حركات البشر. وتحكّ جلدها من البراغيث، أو تجري وتقفزُ من جدار إلى آخر، وتجمعُ الآجر والملاط القديم، وتكوِّمها في ركن ما، ثم تنسى أين وضعتها، فتتعارك، وتصرخ صرخات مدوّية، وينتهي العراك فجأة كما بدأ، فتهرع إلى اللعب فوقَ شُرفات قصر الملك وتحتها، وتهزُّ أشجار الورود والبرتقال، ولا غرض لها من ذلك إلا التسليةَ والسرورَ بتساقط الفاكهة والزهر منها.

وكان يبدو لها أحيانًا أن تطوف بالقصر، فتهرع إليه، وتتفقد مئات الحُجُرات، والممرّات المظلمة، وتقلد البشر في حديثها، ثم تنسى بعد ذلك كلّ شيء، ولا تفرق بين ما رأته، وما لم ترَهُ. وإذا عطشت هرعت

إلى المستودعات، فتعكِّرُ مياهها، وتملؤها بالأقذار، ولا تلبثُ أن تتعارك من أجل ذلك، ثم تجري في جماعات وهى تصرخ قائلة:

– ليس في الغابة أعقلُ، ولا أمهرُ، ولا أقوى، ولا أرقّ، ولا أجملُ من الباندارلوج!!

وتكرّرُ هذه الحركات والأفعال إلى أن يتملكها السأمُ، وتملّ المدينة فتتركها، وتعود إلى أشجارها أملاً في أن تتجه إليها أنظار أهل الغابة.

ولم يكن موجلي ليرضى بمثل هذه الحياة، أو يفهمَ لها معنى، فقد تعلمَ قانون الأدغال، وتمرّن على تطبيقه، فما كانت نفسه لتستسيغ تلك الفوضى الدائمة.

* * *

وكان قد مضى شطرٌ من الليل عندما وصلت القردة بموجلي تجرّه جرًّا إلى المدينة الموحشة؛ ولكنها لم تنم كما يفعلُ هو بعد مثل تلك الرحلة الطويلة، بل أمسك بعضها بأيدي بعض، وجعلتْ ترقص، وترددُ أغاني سخيفةً. وألقى أحد القردة خطبة بين زملائه، قال: إن اختطاف الصبيّ يبدأ عهدًا جديدًا في تاريخ الباندارلوج، إذ في استطاعته أن يعلمهم جدْلَ العِصيّ والأغصان، لتحتمي بها من الأمطار والصقيع. والتقط موجلي بعض أغصان النباتات الزاحفة، وبدأ يجدلها، وحاولت القردةُ أن تقلده،

غير أنها سئمت العمل بعد قليل، وانصرفتْ إلى تجاذب الذيول، وتلاحق القفزات والضحك.

قال موجلي:

– أريد أن آكل، وأنا غريبٌ في هذه الناحية من الغابة، أعطوني طعامًا، أو اسمحو لي بالصيد هنا.

وأسرع عشرون أو ثلاثون قردًا فذهبت لتحضر له شيئًا من الجوز، أو البابو البريّ، ولكنها بعد أن حصلتْ عليه تعاركت في الطريق، ففُقِد معظمه، ولم تجدْ فيما تبقى ما يستحقّ الحمل، فتركته على الأرض وعادت إلى الصبيّ بغير طعام. وكان موجلي فوق جوعه غاضبًا متألمًا جريحًا فجعل يجوب أنحاء المدينة الخربة، ويُطلق بين آن وآخر نداءَ صيد الغرباء ولما لم يجبه صوتٌ عرف أنه قد نُزِح به إلى مكانٍ سحيقٍ! فقال لنفسه:

– لقد صدق بالو في كل ما قاله عن الباندارلوج، فليس لهم قانونُ ولا زعيم، ولا يعرفون نداء الصيد اللهمَ إلا حديثًا سخيفًا، وأياديَ متلصِّصة صغيرة؛ ولو قتلت هنا، أو متّ جوعًا، لما حمل وِزْر ذلك غيري. فعليّ أن أحاول العودة إلى غابتي، وسيضربني بالو حتمًا، وإنَّ ضرَباته لأفضل عندي من هذه الحياة الجنونية الشقية مع الباندارلوج.

وتقدم نحو أسوار المدينة علَّه يجدُ منفذًا للخروج، فلحِقت به

القردة، وجذبته بعيدًا عنها، وأعادته إلى مكانه الأول، وأنَّبته على تفكيره في الهروب، وقالت إنه لا يقدرُ قيمةَ السعادة التي يعيش فيها، وانهالتْ عليه قَرْصًا ليعترف بالجميل!!

وتملك الغضبُ موجلي، ولكنه لم يقل شيئًا، وعضّ على أسنانه؛ وسارت القردةُ الضاحكةُ إلى شرفة عالية فوق مستودعات بُنيت من الأحجار الرملية الحمراء، وكانت ممتلئة إلى منتصفها بالمياه. وكان في الشرفة جوْسقٌ خرِبٌ من المرمر، صُنع من قبلُ للملكات، وقد تداعى على مرّ الزّمن سقفهُ المقبَّبُ، وتساقطت أحجاره، فسدَّت النفقَ الذي كانت الملكاتُ تمر منه إلى القصر. وكانت الجدران من مرْمر جميل في بياض اللبن، زُيِّنت بنقوش دقيقة، ورُصّعتْ بالعقيق، واليَشب، واللازَوَرْد، وغيرها من الأحجار الكريمة. وعندما أشرق القمرُ، وتصاعدَ في السماء، وبرزَ قرصُه من التلّ، تساقط شعاعه الفضيّ علي هذه الجدران المكشوفة الرائعة، فانعكس ظلها، وامتدت على الأرض كأنه مخملٌ أسودُ مطرّزٌ.

كان موجلي تعبًا جائعًا ناعسًا، ومعَ ذلك لم يقوَ على كبْت الضحك عندما تجمَّعت القردةُ أمامه، وتحدثتْ إليه، كل عشرين منها في نَفس واحد، وجعلت تصف له عظمتَها، وحكمَتها، وقوتها، وقدرتها. وأنبته على الطيش الذي يدفعه إلى التفكير في هجرها. وظلت القردة تصرُخُ قائلة:

– نحنُ عظماء، نحنُ أحرارٌ، نحن شعبٌ رائعٌ يفضل أهل الغابة جميعًا. كلنا يقول ذلك، فلابدّ إذًا أنه حق. ولأنك حديث العهد بيننا سنسمعك أنباء عظمتنا وتفوُّقنا، لتنقله إلى أهل الغابة، فيحترمونا في المستقبل، ويلحظونا بعين العناية والاهتمام.

ولم يعارض موجلي، فاجتمعت القردة مئات فوق الشرفة، وأخذ الخطباء منهم يتغنَّوْن بمديح الباندارلوج! وكلما وقف خطيبٌ ليستريح قليلاً، ارتفعتْ صرخات المستمعين تقولُ:

– صدقتَ فيما قلتَ، وكلنا يقولُ ذلك!!

وجلس موجلي صامتًا، وأطرق، ولم يُجبْ عن أسئلة القردة بغير كلمة "نعم" وكان لا يكاد ينطق بهذه الكلمة حتى تتصدعَ رأسه بالضّجيج مرة أخرى، فيقول لنفسه:

– لقد عقرَهم تاباكي جميعًا، فأصابهم الجنونُ، فما هذا الذي أراه من هؤلاء إلى مرضُ الديواني. ألا ينامُ هذا الشعبُ أبدًا؟ ثم التفت فجأة وقال: "أرى سحابة قادمة، ستحجب القمرَ، فياليتها كانت كبيرة لعلي أستطيع الهرب في الظلام". ثم سكت لحظة وقال: "ولكنني تعبٌ لا أقوى على المسير!" وكان النمر بجهيرا وثعبان الصخرة "كا" في تلك اللحظة قد بلغا أسوار المدينة وجلسا في حفيرة مهدمة يراقبان هذه السحابة نفسها، فلقد كانا يعرفان حقًّا خطورة القردة إذا اجتمعتْ معًا،

ولذلك أمسكا عن المخاطرة؛ فالقردة لا تقاتل عادة إلا إذا كان عددها عظيمًا يزيد أضعافًا على عدد عدوها. ولا يستطيعُ مثلَ هذا القتال، ويقبله إلا قليلٌ من أهل الغابة.

وقال "كا" هامسًا:

- سأتجه إلى الجدار الغربي، وأهبِطُ منه في سكون، وسيساعدني انحدارُ الأرض هناكَ على ذلك. فلعلي أجدهم هناك مفرَّقين فلا يقفزون فوق ظهري مئات، ولكن....

فقاطع بجهيرا قائلا:

- وددتُ لو كان بالو معنا، ولكننا لا نستطيع انتظاره، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا, ونبذل قصارى جهدنا فإذا ما حجبت هذه السحابةُ القمر تسللتُ أنا إلى الشرفة من هذه الناحية، فإني أراهم يعقدون مجلسًا حول الصبي.

فأجاب "كا" في جدّ:

- ليكن التوفيق نصيبك.

وابتعد الثعبان نحو الجدار الغربي، وكان هذا الجدارُ أقل أسوار المدينة تهدمًا، فجاهد في الصعود عليه، ومر عليه حينٌ قبل أن يستطيعَ أن يخرج من بين الصخور.

وأقبلت السحابةُ، وحجبت القمر، فانتشر الظلام؛ وبينما كان

موجلي يسائل نفسه عما يحدث بعد ذلك، إذ سمع خطوات بجهيرا، وهو يقطع الشرفة في خفّة، بعد أن هبط من المنحدر مسرعًا، خفيفَ الحركة. لا يسمع لسيره صوتٌ.

وكانت القردةُ تجلس حول موجلي في دوائر كبيرة، يبلغ عدد كلّ منها خمسين أو ستين قردًا، فاندفع النمر بينها، وراح يضرب بكفيه يمينًا وشمالا، حتى لا يضيع الوقت في النهش والعض. وتعالت صرخات الرعب والغضب، وتساقطت الأجسادُ متدحرجة تحتَ أقدام بجهيرا، فهتف أحد القردة قائلا:

– إنه واحدٌ فقط، ونحن كثيرون، فاقتلوه سريعًا.

وأطبقت على بجهيرا جمهرة من القردة الغاضبة، وانهالت عليه نهشًا وتمزيقًا وخدشًا، وأمسكَ خمسةٌ منها بموجلي، وجذبته إلى الجوْسق، ودفعته إلى داخله من ثَقْبٍ بأعلى القبة؛ ولم يكن للجوسق منفذٌ سواه. ولو كان موجلي صبيًّا نشأ بين البشر، وترعرع معهم، لآذاه السقوطُ من ارتفاع خمس عشرة قدمًا، ولكنه قفز كما علمه بالو، فوصل إلى الأرض سالمًا.

وصرخت القردة قائلة له:

– امكثْ في مكانك، ولا تتحرّكْ منه، حتى نقتل أصدقاءك، ونعود إليك؛ وسنلعبُ معك بعدُ، هذا إذا تركك "شعب السُّموم" حيًّا.

وكان الجوسقُ مثل غيره من الأماكن الخربة في الهند مليئًا بحيات

الكوبرا، فأسرع موجلي وأطلق نداء الأفاعي قائلا:

– لنكن من دم واحد، أنتم وأنا!

وسمع من بين كومات القُمامة فحيحًا، فردد النداء مرة أخرى على سبيل التأكيد، فأجابت أفاعي الجوسق:

– اخفضوا الرءوس، قف مكانك ولا تتحرك أيها الأخُ الصغيرُ، حتى لا تؤذينا بسيرك.

ولبى موجلي هذا الرجاء، وطفق ينظر خلال شقوق الجوسق المحطم، ويُصغي إلى أصوات القتال الصّاخبة. وتعالت الصرخات، والشهقاتُ، وسمع سعال النمر الأسود، وهو يتراجع، ليثب مرة ثانية، ويقتحم حشود أعدائه؛ فلقد كانت تلك أول مرة يقاتل فيها بجهيرا من أجل حياته!

وفكر موجلي قليلا، وقال:

– لابد أن يكون بالو قريبًا، فإن بجهيرا لا يأتي وحده.

وصرخَ الصبيّ عاليًا يقول للنمر:

– إلى مستودع الماء، يا بجهيرا. أسرع، وولِّ وجهك شطره، واقفز إلى المياه.

وسمع بجهيرا النداء، وعرف أن موجلي ما زال على قيد الحياة، فدبت الشجاعة في جسده، وقاتل مستميتًا، ليشق طريقه إلى المستودعات؛

وانهال على أعدائه ضربًا في قوّة وصمت. ثم ارتفع صوت من الجدار المواجه للدّغَل وكان ذلك صوت بالو، وهو يطلقُ نداءه الصاخب للقتال، فلقد أسرع الدبّ العجوز جهده، ولم يتمكّن من الوصول قبل ذلك.

وصرخ بالو قائلا:

– إنني هنا، يا بجهيرا. إنني أتسلقُ، إنني أسرع. الصخور تنزلق تحت أقدامي. ها أنا ذا آتٍ إليكم، يا شعب القردة السافل!

وسار فوق الشرفة لاهثًا، فلم تمض لحظة حتى أطبقت القردةُ عليه، واختفى إلى رأسه تحت أمواجها الزاخرة، فتقهقر إلى الخلف قليلا، وجلس على عَجُزه ومدّ أماميتيه، وراح يحتضن بهما ما استطاع من القردة، وينكّل بها شر تنكيل.

أما بجهيرا، فقد عَمِلَ بنصيحة موجلي، وتدحرج على الأرض ظهرًا لبطن حتى وصل إلى المستَوْدعِ، وقفز إلى المياه حيثُ لا يستطيعُ القردة أن تتبعه، وجلس في وسطها لاهثًا. وتجمعت القردة عند المستودع.

جلست على درجات السلم الأحمر في صفوف متوالية، كل صفٍّ منها ثلاثة قردة استعدادًا للوثوب على النمر إذا حدثته نفسه بالخروج، لمساعدة بالو.

وتملك اليأس بجهيرا، وخُيل إليه أن "كا" لم يصل إليه لأنه عدل عن

رأيه الأول، وعاد على أعقابه في اللحظة الأخيرة، فرفع ذقنه المبتلّ وأطلق عقيرته بنداء الثعابين للحماية، وقد عرف ذلك عرضًا حينما كان يناقش بالو فيما ألقاه على موجلي من الدروس، فقال:

– فلنكنْ من دم واحد، أنتم وأنا!

وكان بالو يقف على حافة الشرفة، وهو على وشك الاختناق بين جموع القردة الثائرة، إلا أن زَمجرَ غاضبًا عندما سمعَ النمر يطلب الحماية، وما سبق له أن طلبها من أحد.

وفي ذلك الوقت كان الثعبان الصخريّ قد خرج من بين صخور الجدار الغربي، وهبط في قفزة مفاجئة ألقتْ بإحدى الصخور بعيدًا إلى الخندق. والتفَّ حول نفسه مرَّات، ثم استوى لكي يطمئن إلى أن جسده سليمٌ قادرٌ على العمل حتى يبدأ القتال وهو تامُّ القوةَّ.

وبينما كان القتال يدور مع بالو، والقردة تصرخ حولَ المستودع الذي اعتصم به بجهيرا، كان "مانج" الخفَّاشُ يطيرُ هنا وهناك، ليستطلعَ أخبار المعركة الخطيرة، ويعود بها إلى أهل الغابة. ولما سمع هاتي الفيلُ الوحشي بالمعركة غضب، لهوَس الباندارلوج، ونأم في شدة، فتنبهتْ على نتيمه جماعاتٌ متفرقةٌ منَ القردة، وفهمتْ ما يحدث، وهرعتْ قافزة بينَ أشجارها، لمساعدة أخواتها في المدينة الخربة. وتردد صوت القتال على بعد أميال، فأقلق الطيور في أوْكارها، وأيقظها من نومها.

واستجمعَ "كا" قوّته، وتقدم إلى الأمام مسرعًا، وهو يتّقد رغبةً في القتال. وقوة الثعبان الصخريّ تكمنْ في الضربات التي يوجهها نحو الفريسة برأسه، وهي ضرباتٌ ساحقةٌ تزيد صرامةً على قوة الحراب والمنجنيق وعصا الكبش والمطارق الحديدية الثقيلة، والثعبانُ الصخريّ الصغيرُ الذي لا يزيدُ طولهُ على أربع أقدام، يستطيعُ في سهُولة أن يُردي رجلا ضخمًا بضربة واحدة من رأسه، فما ظننا بـ "كا"، وقد بلغ الثلاثين قدمًا، أو ما تزيدُ!.

وسدد "كا" ضربته الأولى إلى قلب القردة المتجمعة حول بالو، فأصابت الضربة هدفها، ولم تعد هناك حاجة إلى المزيد، فولت القردةُ الأدبار، ولاذتْ بالفرار، وصرخت في صوت واحد تقول:

– "كا"!! إنه "كا"! فأسرعوا بالهروب!

فقد كانت القردةُ على مرّ الأجيال تعرفُ الكثير عن "كا"، أو لصّ الليل الذي يتسلل بين الأغصان، ويسرق أقوى القردة، وأعظمها شأنًا. واعتادت الأمهاتُ في الباندارلوج أن تخيفَ صغارَها، لتسلك سبيلَ الأدب، بقصصٍ مختلفة عن الثعبان الجبار، الذي يصوّر جسمه، ويجعله في شكل غصنٍ جافٍّ، أو جذع شجرة محطمة، فتنخدع به أذكى القردة، ولا تتبين الحقيقة حتى يطبق الغصنُ أو الجذع عليها.

والقردة لا تخافُ من أهل الغابة غيرَ "كا"، فما استطاع واحدٌ منها



أن يعرفَ مدى قوته، أو يقوى على مواجهة نظراته الساحرة، أو يخرج حيًا من قبضته، ولذلك ما كادت تراه بينها حتى هربت مسرعة، واعتلت الأشجار، والجدران، والأسقف، وهي تتعثر رعبًا وجزعًا. وتنفّس بالو الصُّعَدَاءَ إذ أتيح له الخلاصُ، بعدَ أنْ أعياه القتال، وأصيبَ بجراح بليغة على الرغم من سمك فَرْوِه وكثافته.

وفتح "كا" فاهُ هناك أول مرة، وأطلق فحيحًا طويلاً رهيبًا فتسمّرت القردةُ في مكانها، وكفّت عن الصياح والجري، وارتعدت أجسادها هلعًا، وثَقُلت الأغصان بمن عليها، فانحنتْ وتحطم بعضُها. وساد السكونُ أرجاءَ المدينة المهجورة، فسمعَ موجلي وهو في الجوسق صوت بجهيرا وهو ينفض المياه عن جسده بعد أن خرج من صهريج الماء. وعلا الضجيج مرة أخرى، وقفزت القردةُ إلى أماكن أعلى من الجدران، ورقص موجلي في مكانه طربًا، وهو يسترق النظرَ من خلال جدران الجوسق، وجعل ينعب كالبوم سخريةً واحتقارًا.

فقال بجهيرا لاهثًا يخاطب الثعبان:

– أخرج جرو البشر من الشرَك، فلست أستطيع أن أبذل أيَّ جهد بعد هذا. أخرجه سريعًا لننصرف به من هنا، قبل أن يهاجمونا مرة أخرى:

فأجاب "كا" في فحيح:

- لن يتحركوا إلا بإذني.
وساد السكونُ المدينة الخَرِبةَ ثانية، فقال بالو يعتذر للنمر:
- لقد أسرعتُ يا أخي، قدرَ الإمكان، ولم أستطع الوصول قبلَ ذلك؛ ويخيل إليّ أنني سمعتك تنادي.
فأجاب بجهيرا خجلا:
- ربما خرجت مني صيحةُ نداءٍ أثناء القتال. هل أصبت يا بالو؟
فهز بالو أرجله واحدة إثرَ الأخرى، ثم قال في وجوم:
- كنتُ أظنهم مزقوني إلى مائة دبٍّ صغير، إنني جريحٌ.
والتفت إلى الثعبان واستطرد:
- أعتقدُ أنني وبجهيرا نَدِين لك بالحياة، يا "كا"
- عفوًا، عفوًا؛ ولكن أين الرجلُ الصغيرُ؟
فهتف موجلي من داخل الجوسق مجيبًا:
- أنا هنا، في الشرك، ولا أستطيع الخروجَ.
ولقد كانت قبة الجوسق شديدة الانحدار، فلم يتمكن الصبيّ من تسلقها.
وهتفت أفاعي الكوبرا من حوله تقول:
- خذوه من هنا، إنه يتراقص جَذَلا مثل ماوو الطاووس! نخشى أن يحطّم صغارنا بقدميه.

فقال "كا" في ضحكة مكبوتة:

– كذا يكون الجدّ، إن للرجل الصغير أصدقاء في كل مكان. تراجعْ إلى الوراء، أيها الرُّجيلُ، وأنت يا شعبَ السموم احترسْ فسأهدمُ الحائط الآن.

ونظر "كا" حوله في إمعان حتى وجد في المرمر المنقوش شقًّا يكشف عن نقطة ضعيفة من بناء الجوسق، فحرك رأسه إلى الأمام والخلف، ثم لمس به الشق في خفة، ليقدر المسافةَ، ثم رفع رأسه وصدره حتى قام على الأرض بستّ أقدام من جسمه الطويل، ثم جمع كل قوته، وسدّد إلى الجزء الضعيف من الجدار ست ضربات برأسه، فتهدم، وتناثرتْ الأحجارُ وامتلأ الجو بسحُب من الأتربة، وقفز موجلي إلى الخارج من الفتحة، وألقى بنفسه على بالو وبجهيرا، فاحتضن عنقهما بذراعيه.

وقال بجهيرا، وهو يحتضنه في رقة:

– أجُرِحتَ أيها الأخُ الصغيرُ؟

فقال الصبي:

– لا، ولكني متوجعٌ، جائعٌ، وبجسدي كثيرٌ من الكدمات. ورأى الصبي الجراح تغطي جسدَيْ الدب والنمر فصاح مذعورًا:

– آه، لقد قسوْا عليكما، يا صديقيَّ، فكلاكما ينزف دمًا. فأجاب بجهيرا، وهو يلعقُ شفتيه:

– لئن سالتْ بعضُ دمائنا لقد غادرنا كثيرًا غيرنا في الدماء غرقى.

وأشار إلى القردة الميتة الملقاة في الشرفة حول صهريج المياه؛ فقهقع بالو في ألم وقال:

– لا تهمنا الجراحُ ما دمت سليمًا، يا فخر الضفادع.

وقال بجهيرا في صوت أجش أزعج الصبي:

– سنحاسبك بعدُ على ما اقترفت، وعليك الآن يا موجلي أن تشكر "كا" وفقًا لتقاليدنا، فلن ندين بالنصر والحياة إلا لهُ.

ونظر موجلي إلى الثعبان، فرأى رأسه الضَّخم، وهو يتأرجح في الهواء على ارتفاع قدم منه.

فقال "كا":

– أهذا هو الرُّجَيل؟ ؟ يا لجسده الناعم الأملس. لا أظنه يختلفُ كثيرًا في شكله عن الباندارلوج؛ فخذ حذْرك، يا رُجيل كلما رأيتني خلعتُ ثوبي، لأستبدل به ثوبًا جديدًا، خذ حذرك وإلا أخطأتُ معرفتك في الغسق وظننتك قردًا.

فأجاب موجلي:

– لنكن من دم واحد، أنت وأنا. لقد أنقذت حياتي الليلة، فحق عليّ أن أذكرُ الجميل ما نبض الدمُ في عروقي! وسأصيد لك منذُ الآن عندما تجوعُ، يا "كا".

فسأل ”كا“، وقد برقت عيناه:

– شكرًا لك يا أخي الصغير. تُرى ما الذي يستطيعُ أن يصيده قناصٌ شجاعٌ مثلك؟ أريد فقط أن أعرف، حتى أتبعك في صيدك القادم!

– لا أستطيعُ أن أصيب الآن شيئًا، فما زلتُ حَدثًا صغيرًا، ولكني أحوشُ الماعز وأطردها إلى من يمكنه الانتفاعُ بها، فتعال إليّ يا ”كا“ كلما جعت حتى تعرف صدق قولي. إن لي بعض المهارة في هاتين الذراعين، وقد أتمكن بهما من وفاء ديني لك، أو لبالو، أو بجهيرا، إذا سقط أحدكم يومًا في شرك. صيدٌ موفقٌ لكم جميعًا، أيها السادة.

فقال بالو:

– أحسنت.

فقد قدّم الصبيّ شكرَهُ في أسلوب جميلٍ حارّ. وأنزل الثعبانُ رأسه بخفَّة فوقَ كتف موجلي، وقال:

– لسانٌ حلوٌ، وقلبٌ قويٌ. اذهب الآن سريعًا، يا رُجَيل، فقد بدأ القمر ينحدرُ إلى الغروب، وأمامك رحلةٌ طويلةٌ في الغابة، وستقعُ في هذا المكان أحداثٌ ليس من الخير أن تراها.

وبدأ القمر يحتجبُ وراءَ التل، فتضاءل الضوء في المدينة المهجورة، وبدت القردةُ المرتعدة المتقاربة، وهى تقفُ فوقَ المباني والجدران، مثلَ هُدْبٍ مهلهلٍ مهتزّ. وذهب بالو إلى الصهريج ليرتوي، وانصرف

بجهيرا إلى فروه يمسحه وينظفه؛ على حين تسلل "كا" إلى وسط الشرفة، وضم فكيه في قضمة رنانة جذبتْ أنظار القردة إليه.

قال:

– إن القمر يختفي وراء التلّ، فهل يبقى ضوء للرؤية؟

وتردد من فوق الأسوار والجدران صوتٌ كأنه أنين الرياح بين أعالي الأشجار.

وقالت القردة:

– إننا نراك يا "كا"!

– حسنًا، فلنبدأ الرقص: رقص "كا" الجائع، فاجلسوا صامتين، وانظروا بعيونكم فقط.

والتف حول نفسه في دوائرَ كبيرة، وهو يحركُ رأسه ذاتَ اليمين، وذات الشمال؛ واستدار جسدهُ المرن في حلقات انقلبتْ إلى مثلثات تبعتها مربعاتٌ ومخمساتٌ. وظل يرقصُ هكذا دون أن يسرع، أو يقفَ، أو يكف عن فحيحه الهادئ المكبوت. وتضاءل الضوءُ تدريجًا، فانتشرَ الظلامُ، واختفى بين طياته الجسدُ المتراقصُ، وسادَ السكونُ إلا من حفيف حراشيفه، وهي تلمسُ الأرض.

ووقف بالو وبجهيرا جامدين كالصخر، وعلتهما رهبةٌ شديدةٌ، فقفَّ شعرُ عنقيهما وجفّ ريقهما! ووقف موجلي ساكنًا يرقبُ المنظرَ

في عجب ودهشةٍ. وأخيرًا ارتفعَ صوتُ "كا" يقولُ:

– أيستطيعُ أحدكم، يا شعبَ القردة، أن يحرك قدمًا أو ذراعًا، دون أمري؟ أجيبوا!

– دونَ أمرك لا نستطيعُ الحراك، يا "كا".

– حسنًا، تقدموا جميعًا خطوة إلى الأمام.

وتأرجحتْ صفوفُ القردة، وهي تتقدم نحوه في استسلام، وكذا فعلَ بالو وبجهيرا.

وتردد فحيحُ "كا" يقولُ:

– اقتربوا!

فتحرك الكل نحو خطوة ثانية.

وأحاط موجلي صَديقيه بذراعيه ليبعدهما، فتنبَّه الدب والنمر للمسته فجأة كأنهما يستقظان من حلم كريه.

وهمس بجهيرا للصبيّ:

– أبقِ ذراعك فوقَ كتفي، وإلا اندفعتُ إلى أنياب "كا"!

فأجاب:

– لست أرى فيما يعملهُ غير حركات لا تعي شيئا، فدعنا نذهبْ.

وتسلل الثلاثةُ من خلال فتحة في أسوار المدينة، وخرجوا إلى الغابة مسرعين فلما أظلتهم الأشجار الساكنةُ قال بالو:

– أفّ ! ! لنْ أكونَ بعدَ اليوم حليفًا لـ "كا" !

ونفض جسده، كأنه يردّ الحياة إليه، فقال بجهيرا وهو يرتعدُ:

– إنه يفوقنا قوّة، ولو بقيتُ أمامه دقيقة واحدة لاندفعتُ إلى فمه دونَ أن أشعر.

أجاب بالو:

– سيسيرُ الكثير في هذا الطريق، ويصبحُ لقمةً سائغةً قبل أن يتعالى القمرُ مرة أخرى !

ولم يكنْ موجلي يعرفُ من قبلُ شيئًا من أمر ثعبان الصخرة، فتعجبَ لحديثهما، وسألهما قائلا:

– أيّ معنى لكلّ هذا؟ لستُ أذكرُ أنني رأيتُ شيئًا أكثر من ثعبان يلتفْ حول نفسه في حلقات سخيفة حتى أطبق الظلامُ. ولقد كان أنفه داميًا أيضًا.

وانفجر ضاحكًا، فغضب بجهيرا، وانتهره قائلا:

– لقد دمى أنفهُ من أجلك يا موجلي، كما دميتْ أذناي، وجوانبي وأقدامي، وتمزّقتْ كتفُ بالو لإنقاذك؛ وسوف يضطرنا ما أصابنا من أجلك إلى أن نكمن في مخبأ بالغابة نتوارى فيه أيامًا لا يستطيع أحدنا أن يصيد شيئًا.

فقال بالو:

– لا تهمّ الجراح ما دمنا استعدنا الرجل الصغير.

فقال النمر:

– صدقت، ولكن ذلك كفلنا وقتًا طويلا، وجهدًا كبيرًا كان من الممكن أن نستنفدهما في صيد طيب، فضالا عما أصاب جسدنا من جراح، وما نزل بشرفنا من مهانة.

والتفت إلى الصبي غاضبًا، واستطرد:

– تذكرْ جيِّدًا، يا جرو البشر، أنك بعبثك ولهوك مع الباندارلوج، قد ألجأتني أنا النمر إلى الاستغاثة بـ "كا"، دعوته إلى حمياتي، وتذكرْ أيضًا أنه من أجلك قد ارتعد سيدا الغابة، وأشجعُ من فيها، وتسمّرا في مكانهما كالطيور أمام رقصة الجوع.

فأجاب موجلي آسفًا:

– صدقت، فأنا جروٌ شريرٌ، وقلبي حزينٌ يكادُ ينفطر بين جنبيّ.

– ماذا يقولُ دستورُ الغابة في ذلك، يا بالو؟

ولم يكن الدبُّ يريد أن يجرَّ على الصبيّ من المتاعب فوق ما أصابه، غير أنه لم يستطعْ أن ينكر نصوص الدستور، أو يُموِّه فيها، فأجاب:

– يقول الدستورُ إن الأسف لا يمنعُ العقاب؛ ولكنْ تذكَّرْ يا بجهيرا، أن موجلي ما زال صغيرًا.

فقال النمر:

– أعرف هذا، وسأجعلُ عقوبته على خطيئته لَكمَاتٍ خفيفةً. ألديك، يا موجلي، ما تدافع به عن نفسك؟

فأجاب الصبيّ:

– لا. لقد أخطأتُ. فجُرحت أنت وبالو، والعدالة تقتضي عقابي.

فأصابه بجهيرا ببضع لكمات لا يعدها النمر عقابًا، ولا هي توقظ جروًا نائمًا من جرائه، ولكنها كانت قاسيةً على موجلي موجعةً له وهو صبيّ ما زال في السابعة من عمره.

فلما انتهى العقابُ، عطس موجلي، وتحامل على نفسه، ونهض صامتًا، فقد كان دستور الغابة ينص على أن العقاب يُنْهي الخلاف، ويجب ألا ينشَب بعده عراك أو مناقشة.

وقال بجهيرا للصبيّ:

– اقفزْ فوق ظهري، أيها الأخ الصغيرُ، لأحملك وأعود بك إلى الكهف.

وركب موجلي ظهر النمر، وأسند رأسه إلى عنقه، واستسلم لنوم عميق لم يستيقظ منه طول الطريق، بل بعد ما وصلوا إلى الكهف وعندما رأته الأم ذئبة كذلك أرقدته بين جرائها.

* * *

٣

الببر .. الببر !

– "ما أخبارُ الصيد، أيها القناص الشجاع؟"
– "ظللتُ، يا أخي أراقبُ كثيرًا في البرد والظلام!"
– "وأينَ الطريدة التي عدوت وراءها؟"
– "ما زالتْ تسعى، يا أخي، سعيدةً في الأدغال!"
– "وأين القوة التي تفخر بها؟"
– "ذهبتْ من القلب، وهجرت الذراعَ!"
– وأين السرعة التي تجري بها؟"
– "سأقطعها في السير إلى الكهف لأموت!"

* * *

سنعودُ الآن إلى ما حدثَ بعد نهاية القصة الأولى، فعندما غادر موجلي وجار الأب ذئب بعد عراكه مع العشيرة فوق صخرة الشورى، ذهب عن الدغل، وهبط إلى الحقول حيثُ يعيش القرويون، ولكنه أبى أن يقف بذلك المكان، لقربه من الدغل الذي خلف فيه عدوًّا خطيرًا.

والتزم الطريق الوعر المنحدر إلى الوادي، وظلّ يُهَرْوِلُ إلى الأمام حتى وصل بعد مسيرة عشرين ميلا إلى قرية لا يعرفها.

وكان الوادي يتسعُ هناك إلى سهْل كبير تتناثر فوقه الصخورُ، وتتخلله الأخاديد، وكانت القرية على أحد جانبي السهل، وعلى الجانب الآخر كانت الأدغالُ تنحدرُ نحو المراعي، ثم تختفي فجأة عند حافَّة السهل كما لو أنها قطعتْ بمنجل. وانتشر البقرُ والجاموسُ فوق السهل ليرعى، ويقتات بما يجده من حشائش.

ورأى الصَبْية الرعاةْ موجلي، فصرخوا خائفين، وولوْا هاربين، ونبحت الكلاب الصفراءُ التي تموجُ بها كلّ قرية هندية. ولم يَنْثنِ الصبي لذلك الاستقبال، ولم يقف، ولم يتردد، بل تقدم في شجاعة إلى بوابة القرية مدفوعًا بما يشعرُ به من سغب، فوجد أن الحواجز التي توضع عليها في الليل، قد رُفعت من مكانها وانفرجت البوابةُ على مِصْراعَيْها. والتوتْ شفتاهُ ازدراء، فلقدْ سبق أن قابل حواجز مثل هذه، وتغلب عليها دون جَهد خلال جولاته الليلية سعيا وراء الطعام، فقال لنفسه:

– إذًا فهنا أيضًا يخاف البشر أهل الغابة!

وجلسَ جوارَ البوابة، وظلّ في مكانه ينتظرُ؛ وعندما رأى رجلا مقبلا نهض، وتقدمَ منهُ، وأشار إليه فيه طلبًا للطعام، فتأمله الرجلُ قليلا، ثم عادَ جريًا إلى القرية، وهو يصرخ بالكاهن، ويُناديه.

وأقبل الكاهنُ على عجل، وكان رجلا ضخم الجسم يرتدي ملابس بيضاء، ويزينُ جبهته بخطوط حمراء وصفراء، وخرج من البوابة في مائة شخص على الأقل، ووقفوا جميعًا ينظرون ويشيرون إلى الصبيّ في عجب.

فقال موجلي في نفسه:

– البشرُ شعبٌ لاحظّ له من الأخلاق، فالقردةُ الرمادية هى التي تحملق وتشير هكذا!

وأزاح شعره إلى الخلف، ورفع وجههُ يشخص بصرهُ إلى الجمهور الخائف الدهش.

فقال الكاهنُ للقوم:

– أيّ شيء تخافون؟ ألا ترون عقرات الذئاب على كتفيه وقدميه؟ إنه طفلٌ ذئب هرب من الغابة!

فكثيرًا ما كانت جراء الأم ذئبة تقسو على موجلي في لعبها، فتنهشه بأنيابها، فخلف ذلك ندوبًا وجروحًا على كتفيه وقدميه، ولم يكن الصبيّ يعدُّ مثل هذه الخدوش عضيضًا، لأنه كان يعرفُ ما هو العضّ الحقيقي.

وهتفت بعض النساء قائلات:

– من المحزن أن تعَض الذئاب هذا الطفل المسكين. إنه صبيٌّ جميلٌ، ولكنّ عينيه في حمرة الجمر!

واستطردت إحداهنّ:

– أقسمُ بشرفي يا "ميسيوا" إنه يُشبه طفلك الذي اختطفه البَبر، فتقدمتْ امرأةٌ تزين معصميها بأساور نحاسية ثقيلة، وقالت:

– دعوني أنظرْ. أحب أن أراه.

واستكفّتْ لتمنع ضوء الشمس عن عينيها، لترى الصبي في وضوح، وجعلتْ تتأملُ موجلي مليًّا ثم قالتْ:

– لستُ واثقة، فهو أنحفُ جسما، وإن كان يشبه ابنيّ كل الشبه.

وانتهز الكاهن فرصة تردد المرأة، وأراد بذكائه أن يستغلَّ الموقف، لأن ميسيوا كانت أغنى امرأة في القرية؛ فرفع عينيه إلى السماء، وتأمل الفضاء لحظة، ثم تمتم في جد يقول:

– لقد أعاد الدخل إلينا ما سلبنَا إياه. خذي الصبي إلى بيتك، يا أختاه، ولا تنسي أن تبجلي الكاهن الذي يكشف الكثير من حياة الناس.

فقال موجلي في نفسه:

– أقسم بالثور الذي افتداني إن حديثهم لا يختلف عن شجار العشيرة في شيء؛ ولكنْ ما دمتُ بشرًا، فيجب عليّ أن أكون مثلهم.

وتفرّق الجمعُ، وأخذت المرأة موجلي إلى كوخها، فرأى فيه فراشًا أحمر اللون، وصومعة كبيرة للحبوب مصنوعة من الآجر المنقوش بمختلف الرسوم البارزة، وأواني نحاسية للطهْي، ومرآة على الحائط وتمثالاً صغيرًا لإله الهندوس فى محراب مقبب .

وقدمت المرأة إليه لبنًا كثيرًا، وربتتْ بيدها على رأسه، وتأملتْ عينيه عسى أن يكون ابنها الذي اختطفه الببر قد عاد من الأدغال إليها.

وقالت له:

– ناتو. ناتو.

ولم يبدُ على موجلي أنه عرف الاسم، فاستطردتْ قائلة:

– ألا تذكرُ يوم أعطيتك حذاء جديدًا؟

ولمست قدمه بيدها، فوجدتها خشنة جامدة، فردت يدها وتنهّدت في أسى قائلة:

– لا، فهذه القدمُ لا عهد لها بلبس الحذاء؛ ولكنك مع ذلك تشبه ولدي ناتو كل الشبه، وستكون ابني منذُ اليوم.

وأحسّ موجلي بالقلق، وضايقته الجدرانُ التي لم تضمه من قبلُ، ونظر إلى السقف القشيّ، فوجد أنه يستطيعُ تمزيق قشّه متى أراد الخروج، فضلا عن أن النافذة لا قُفل لها.

قال لنفسه أخيرًا:

– أيّ فائدة من أن أكون بشرًا، وأنا لا أفهمُ لغة البشر؟ يجبُ أن أتكلم حديثهم سريعًا، لأتفاهم معهم، بدل أن أجلس بينهم كأني أصم أبكمُ.

وكان موجلي قد تعلم خلال إقامته مع الذئاب كيف يَحكِي خُوار

البقر الوحشيّ، وقُباع الخنزير البريّ، إلى غير ذلك من الأصوات التي قضَتْ عليه حياتهُ في الغابة أن يتعلمها، فساعدهُ ذلك كثيرًا على محاكاة لغة البشر، واستطاع أن يحذِق كل كلمة تنطقُ بها ميسيوا، ويُعيدها بمهارة ودقة، وبذلك تمكن في يومه الأول من أن يعرف كثيرًا من أسماء محتويات الكوخ، وعندما أقبل الليلُ كان يرددها في سهولةٍ وثقةٍ.

وحل وقتُ النوم، فأبى موجلي أن يستسلم للنعاس في كوخ يبدو لعينيه أنه شركٌ، وانتظر حتى أغلقوا الباب، فتسلل من النافذة إلى الخارج.

وقال زوجُ ميسيوا لامرأته:

– اتركيه وشأنَه، واذكري أنه لم ينم على فراش من قبلُ، وثقي أنه لنْ يهرب إذا كانت الآلهة قد أرسلته حقيقة، ليحلّ مكان ابننا المفقود.

وتمدّد موجلي على الحشائش النظيفة عند نهاية الحقل، وقبل أن ينام أحس بأنفٍ ناعم رطبٍ يداعب ذقنه.

وقال الأخ "جراي" أكبرُ جراء الأم ذئبة:

– لو علمتُ أن رائحة البقر والدهن تفوحُ منك هكذا مثل البشر، لما تبعتك عشرين ميلا، قمْ، يا أخي الصغير، وأنصِت إلى أخباري.

واحتضنه موجلي، وسأله:

– هل العشيرة في الدغَل على ما أتمنا لها من رفاهية وعافية؟

– نعم، ما عدا الذئاب التي حرقتها بالوردة الحمراء؛ أما شيرخان فقد رحل عنا، ليقيم في منطقة أخرى حتى يبرأ من حروقه، وينمو شعره من جديد. ولقد أقسم أن يُلقي عظامك في الوانجونجا عندما يعود.

– سوف نرى، فلقدْ أخذتُ على نفسي، أنا أيضًا، عهدًا صغيرًا، وأقسمتُ أنْ أقتله قبل أن يقتلني، ولكن الأخبار الجديدة مفيدةٌ على كلّ حال، فأتني بها دائمًا، واتركني الآن، أيها الأخُ، فأنا تعِبٌ لما جدّ عليّ من أمور.

فأجاب الأخُ جراي قلقًا:

– ولكنك ستذكرُ دائمًا أنك ذئبٌ، ولن تدع البشر ينسونك هذه الحقيقة؟!

فأجاب:

– لا، لن أنسى، وسأذكر دائمًا أنني أحبك، ولكني سأذكرُ أيضًا أن الذئاب طردتني من العشيرة!

– وقد يطردك البشر من عشيرتهم أيضًا، إن البشر بشرٌ أين كانوا، وحديثهم كنقيق الضفادع في المستنقع، وقد لا تلذ لك الحياة معهم. وداعًا، يا أخي الصغير، وعندما أعود سأنتظرك على حافة المرعى بين أشجار الغاب.

ومضتْ أشهرٌ ثلاثةٌ لم يخرج موجلي خلالها من أسوار القرية، لانكبابه

على تعلم لغة البشر، وعاداتهم: فكان عليه أولا أن يستر جسَده بثياب تضايقه، ويتعامل بنقودٍ لا يفهم لها معنى، ويتعلم الزراعة التي لا يرى فائدة فيها.

وكان أطفال القرية يشاكسونه ويغضبونه، لأنه يخطئ في نطق بعض الكلمات، ولا يشاركهم في عبثهم ولعبهم؛ ولكنه كان يكبت غضبه خضوعًا لدستور الغابة الذي علمه ضبط النفس، فإن حياة الحيوان وطعامَه تقومان على هذه القدرة، وكان الأطفال يمعِنون أحيانًا في إثارته، فيتضاعف غضبه, ولولا دواعي الشرف التي كانت تمنعه من قتل جراء عارية صغيرةٍ، لحمل الأطفال بين ذراعيه، وحطمهم عقابًا على استهانتهم به وقِحتهم.

ولم يكن موجلي يعرف مدى قوته، فقد كان في الغابة ضعيفاء إذا قيس بالوحوش، ولكن أهل القرية قالوا إنه في قوة الثور. ولم يكنْ كذلك يفهم الفروق التي توجِدها العقائدُ بين الناس في الهند، ولذلك كان يساعد صانع الفخار عندما يسقط حماره في معجنة الطين، ويجذِب الحيوان من ذيله، فيخرجه، ويُسهمُ في إعادة تنظيم الأواني الفخارية استعدادًا لإرسالها إلى سوق "كانهيوارا".

وصانع الفخار يعدُّ نجِسًا منبوذًا في بلاد الهند، وكذلك حماره فأثار سلوكُ الصبيّ اشمئزاز الناس، وعنَّفه الكاهنُ على عمله، فلم يرتدعْ

الصبي أو يرعوِ، وهدّد الكاهن بوضعه فوق الحمار إذا عاد إلى تعنيفه، وغضب رجل الدين غضبًا شديدًا، وذهب إلى ميسيوا، واقترح عليها أن تبادر، وتُشغل الصبيّ بعمل ما، وأشار بأن تعهد إليه قيادة الجاموس كل يومٍ إلى المرعى.

وفرح موجلي بهذا الاقتراح، وذهب في المساء إلى المصطبة حيث يجتمع الرجال كل ليلة تحت شجرة التين الكبيرة، ليستمعوا أحاديث شيخ القرية، وحارسها، وحلاقها، ويستمتعوا بأقاصيص قانصهم المشهور "بالديو" العجوز ذي البندقية الكبيرة. وكانت القردة تجلس فوق أغصان الشجرة ترقُب المجتمعين، وتتمتم بالحديث مثلهم، وكانت حيةٌ كبيرةٌ ترقد في جُحر تحت المصطبة، وكان أهلُ القرية يقدسون هذه الحية، ويقدمون إليها صحنًا من اللبن كل يوم.

واعتاد الشيوخ والعجائزُ أن يجتمعوا تحت شجرة التين يدخنون النارجيلة، ويتحدثون إلى ساعة متأخرة من الليل، ويسردون قصصًا عجيبة عن الأشباح والآلهة والبشر، ويروي لهم بالديو الكثير من حوادث الوحوش وعاداتها حتى تكاد عيون الأطفال، الذين يجلسون خارج الدائرة، تقفز رعبًا من محاجرها.

وحديثُ الحيوانات لا يفرغ في القرية، لأن الأدغال تقعُ على أبوابها، والقرويون يقاسون منها شتى المخاوف، فتارة تفسد الغزلان

البرية زراعتهم، أو تسرقُ غلاتهم، وتارة يختطفُ الببر رجلا منهم.

وجلس موجلي في ذلك المساءُ يصغي إلى بالديو، وهو يقفزُ من قصة عجيبة إلى أخرى أعجب؛ فتهتزّ كتفا الصبيّ سخرية للخرافات التي يسردها. وجعل بالديو يشرح للجالسين كيف أن الببر الذي سرق ابن ميسيوا لم يكن حيوانًا حقيقيًّا، بل شبحًا تتقمصه روح مرابٍ شرير مات منذُ بضع سنوات.

قال:

وهذه حقيقة لا مِرْيَة فيها، بدليل أن المرابي "بوروندداس" كان يعرج في مشيته إثر ضربة نالها في العراك يوم أحرق الناس سجلاته، والببر الذي أتحدث عنه يعرجُ أيضًا إذ أن آثار كفوفه غير متساوية على الأرض

وهزّ الشيوخُ رؤوسهم، وقال أحدهم:

– صدقتَ. صدقت هى الحقيقة دون شك.

فهتفَ موجلي قائلا:

– إذًا فقصصُكم كلها خرافيةٌ، فالببر يعرج لأنه ولد أعرج، والكل يعرف ذلك، ومن عبث الأطفال أن يقال إن روح المرابي قد تقمَّصتْ جسد وحش جبان ليستْ له شجاعةُ ابن آوي!

وعقدت الدهشة لسان بالديو، وتطلع شيخ القرية إلى الصبيّ مستنكرًا، وأخيرًا قال الصياد:

– أهو طفل الغابة الذي يتحدث؟ إن كنت شجاعًا ماهرًا كما تتظاهر، فأحضر جلده إلى كانهيوارا، لأن الحكومة جعلتْ لمن يقتلهُ مكافأة قدرها مائة وربية، من الخير أن تسكت يا بنيّ، ولا تتحدث في حضرة من يكبرونك سنًّا.

ونهض موجلي لينصرف، وقال وهو يبتعد:

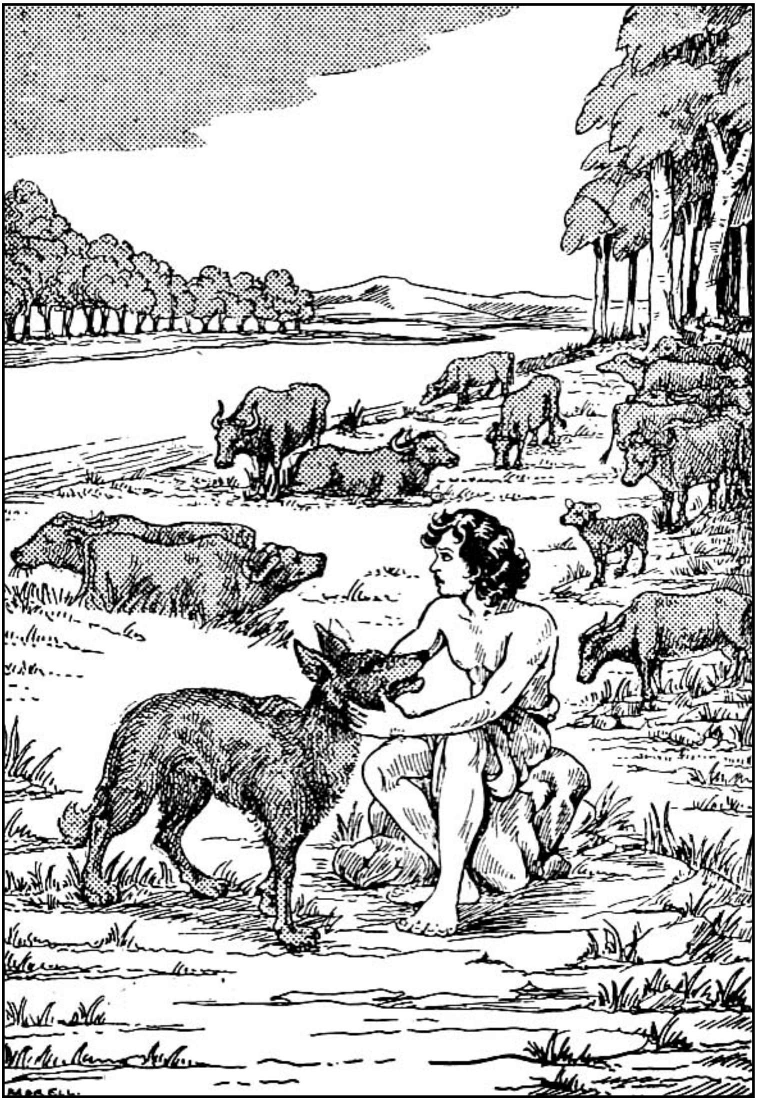
– لقد قضيت شطرًا من الليل أصغي إلى أحاديث بالديو عن الغابة التي تقعُ على أبواب قريته، فلم يصدُق القول إلا نادرًا، فكف تنتظرون مني أن أصدق قصص الأشباحِ والآلهة والشياطين التي يدعي أنه رآها؟!

وانتفخت أوداج بالديو غيظًا وغضبًا، فقال شيخ القرية:

– لقد أزف الوقتُ، ليخرج هذا الصبيّ للرعي.

وكلُّ قرية هندية تخصّص عددًا من الصبية، ليأخذوا البقر والجاموس للمرعى في الصباح، ويعودوا بها مساء والعجيبُ أن هذه الماشية القوية التي قد تدوسُ رجلا بأظلافها فتقتله، تستسلم لهؤلاء الصغار في دعة. وتحتملُ ضربْهم صابرة.

ويجلس الصبيةُ في المرعى إلى جوارها، ليكونوا في أمان من الوحوش، لأنها تخشى قطعان الماشية، وحتى البَبر لا يجرؤ على مهاجمة قطيع منها. أما إذا تفرق الصبية، وابتعدوا سعيًا وراء الزهور أو التقاط صور الورَل (السحالي) هاجمتهم الوحوش واختطفتهم.



وخرجَ موجلي عندَ الفجر، وسارَ في شوارع القرية، وهو يعتلي ظهرَ "راما" ثور القطيع، وتبعه الجاموسُ الرمادي ذو العيون الوحشية الواسعة، والقرون الكبيرة المطروحة إلى الوراء.

ولم يتردد موجلي في أن يجعل نفسه رئيسًا. ولعب دور الرئيس في الحال، فضرب الجاموس بعصًا طويلة من الغاب المطليّ، ووزَّعَ أوامره على الصبية، وطلبَ من أحدهم أن يترك الماشيةَ ترعى وحدها، وحذرَ الآخرين من الابتعاد عنها.

والمراعي الهنديةُ كلها صخورٌ، وطحالبُ، ومرتفعاتٌ، وأخاديدُ صغيرةٌ تتفرقُ بينها الماشيةُ، والجاموس عادةً يلازمُ الغدرانَ والأماكنَ المليئة بالوحول، ليتمرَّغ في الوحول الدافئة ساعات طويلة؛ ولذلكَ قادها موجلي إلى حافة السهل حيثُ ينحدرُ نهر وانجونجا من الأدغال. وهبطَ عن ظهر راما، وأسرعَ إلى حرَش من الغاب، فوجدَ الأخَ جراي ينتظرهُ.

فقال الأخُ جراي:

– لقد انتظرْتكَ أيامًا عدةً، ولكنْ لماذا تقومُ برعي الماشية؟

فأجاب موجلي:

– لأنها أوامرُ صدرتْ إليّ، وسأكون راعيَ القرية فترة من الزمن. أتحملُ أخبارًا عن شيرخان؟

– لقد عادَ أخيرًا، وانتظرَك طويلا، ثم انصرف لندرَة الصيد هنا، لكنه ينوي أن يقتلك.

قال موجلي:

– حسنًا جدًا. عليك، ما دام الببر بعيدًا، أن تجلس كل يوم على الصخرة، لأراكَ وأنا قادمٌ من القرية! فإذا جاءَ فلا تقفْ على الصخرة، بل انتظرْني بجوار الأخدود عندَ شجرة الدهاك، التي تقوم وسط السهل، فمنْ واجبنا أن نحترس حتى لا نلقي بأنفسنا بين أنياب شيرخان.

اختار موجلي مكانًا ظليلا، ورقد لينامَ! أما الجاموسُ فانتشر حوله يرعى.

والرعيُ في بلاد الهند أكسلُ عمل في الحياة، فالبقرُ يتحركُ، ويجرُشُ طعامه، ويرقدُ مزَمجرًا في غير خوار. أما الجاموسُ فيتجه صامتًا إلى المستنقعات، ويخترقُ طريقه بين طبقات وحولها حتى تختفي أجساده فيها، ولا يظهرُ على سطحها غير أنوفه الكبيرة، وعيونه الواسعة الزرقاء. ويظل في مكانه دونَ حركة مثل كتل خشبية! وتكوي الشمس بحرها الصخور حتى لتكاد النارُ تشعُّ منها.

ويجلسُ الصبيةُ الرعاةُ في هذا السكون، فلا يسمعون غير صفير حدأة واحدة ترفرف بجناحيها في أعالي الجو، فإذا ماتَ أحدهم، أو نفقتْ بقرةٌ، انحدرت الحدأة إلى أسفلَ، فتراها أخرى على بعد أميال، فتلحَقُ

بها مسرعة، ولا تكاد تمضي لحظاتٌ حتى يمتلئ الجو بأسراب جائعة منها.

ويقضي الصبيةُ يومهم في خمول: ينامون ثم يستيقظون، ليناموا مرة أخرى. وقد يقطعون الوقت في جدْل الأعشاب الجافة, ويعملون منها سلالا يملؤونها بالجراد! ويتلهَّونْ بجمع ديكة الكرْم، وتحريشها للقتال. وينظمون عقودًا من البندق الأحمر والأسود، ويراقبون السحالي وهي تتشمس، أو الثعابين وهى تنقض على الضفادع بالقرب من المتمرّع! ويغنون أغاني طويلة، تنتهي عادة بنغمات مرتجفة عجيبة.

وفي بعض الأحيان يشيد الصبية قصورًا من الطين، يحيطونها بتماثيل لخيول وبقر ورجال يضعون في أيديهم أعشابًا كأنها عصي قتال. ويتظاهرون بأنهم ملوكٌ، والتماثيلُ الصغيرة جنودهم ورعيتهم. ويمر اليوم بطيئًا كأنه دهرٌ، ويأتي المساء أخيرًا، فينادي الصبيةُ، فيخرج الجاموس من الوحول اللزجة وأنوفها محمرةٌ لطول بقائها في الشمس، وتسير إلى السهل الرماديّ في شريط طويل، وتعودُ إلى أنوار القرية المتلألئة.

وثابر موجلي على عمله، فكان يقودُ الجاموس إلى المتمرغ يومًا بعد يوم، فيرى الأخ جراي يقفُ عند منتصف السهم فوق الصخرة، فيعلمُ أن شيرخان لم يعدْ إلى هذه المنطقة بعدُ، فيرقدُ على الحشائش، يحلمُ بالأيام الخالية في الغابة؛ ويُنصتُ في حذر إلى كل صوت قريب، فلو

أن شيرخان تعثَّر مرة بقدمه العرجاء في الغابة على مقربة من نهر وانجونجا، لسمعهُ موجلي بوضوح خلال الصمت المطبق الشامل.

وأخيرًا جاء اليومُ الذي لم ير الصبيّ فيه الأخَ جراي عندَ المكان المتفق عليه، فعرفَ أن شيرخان قد عادَ، وضحكَ كثيرًا، وقادَ الجاموسَ إلى شجرة الدهاك المغطاة بزهور رائعة ذات لون ذهبيّ يميلُ إلى الاحمرار، وهناكَ وجد الأخَ جراي يجلسُ في انتظاره، وقدْ وقف شعرُ عنقه غضبًا.

وقال الذئبُ مبهورًا:

– لقد اختبأ الببر شهرًا، ليبعثَ الاطمئنانَ في نفس، فلتأخذْ حِذْرَك؛ فإنه أقبل بالأمس مع تاباكي وقطع سلسلة التلال سعيًا وراءك.

وقطَّبَ موجلي جبينه، وقال:

– لست أخضى شيرخان، ولكنّ تاباكي ماكرٌ لئيم.

فقال الأخُ جراي وهو يلعق شفتيه:

– لا يهمُّك أمرُ تاباكي، فقد قابلته فجرَ اليوم، وتركته مجندلا على الأرض يحدِّثُ مئات الحِدَإ عن حكمته، ولكنه حدثني بكل شيء قبلَ أنْ أحطم ظهرَه؛ وقالَ إن شيرخان ينتوي انتظارك هذا المساءَ

بالقرب من بوابة القرية، وهو يختفي الآن في الأخدود الكبير الجافي عند وانجونجا.

فقال موجلي:

- تُرَى أتناوَلَ اليومَ طعامه، أم يسعى جائعًا ورائي؟

وكانت إجابةُ هذا السؤال تعني الموتَ أو الحياة لموجلي؛ فأجاب الذئبُ:

- بل قتلَ عندَ الفجر خنزيرًا، وبعدَ أن أكله شربَ ماء كثيرًا، فشيرخان -كما تعلمُ- لا يحتملُ الجوعَ ولا يرضَاه، ولو كان الجوعُ يحقّق له الانتقامَ من أعدائه.

فقال موجلي:

- يا للغباوة!! أيظن هذا الأبلَهُ أنني سأنتظرهُ أيضًا حتى ينامَ بعد أن أكلَ وشرب؟ أين يرقد هذا الجروُ؟ لو كنا عشرةً هنا لجررْناه على الأرض وهو راقدٌ؛ والجاموسُ لن يهاجمه حتى يشمَّ رائحته. ومن دواعي الأسف أنني لا أعرفُ لغة الجاموس! فهل تستطيع أن تأتي من الخلف، وتدفع هذه الحيوانات حتى تقترب من مكانه، لتشم رائحته؟

فأجاب الأخُ جراي:

- ولكنه سبحَ بعيدًا في وانجونجا، ليحولَ دونَ ذلك.

فأجاب موجلي:

– هذه نصيحةُ تاباكي، فما كانَ في استطاعته أن يفكر وحدَه في ذلك.

ووقف موجلي، ووضعَ أصبعه في فيه مفكرًا، ثم استطرد:

– أخدودُ وانجونجا الكبيرُ، الذي يتسعُ نحوَ السهل على بعد نصف ميل من هنا! يمكنني أن أقودَ السائمةَ في الغابة إلى رأس الأخدود، وننحدرُ من هناك إليه؛ ولكننا لو فعلنا ذلك لتسللَ هاربًا من طرَف الأخدود الآخر، فيجبُ إذًا أنْ نسدّ عليه الطريق. أتستطيعُ، أيها الأخ جراي، أن تشطُرَ قطيعَ الماشية شطرين؟

– لا. لا أستطيعُ أن أفعلَ ذلك وحدي، ولذلك أحضرتُ معي مساعدًا ذكيًّا.

وجرَى الذئبُ إلى حفيرة قريبة، فارتفعَ منها رأسٌ رماديٌّ كبيرٌ يعرفه موجلي كلّ المعرفة، وردّدَت الغابةُ عواء شديدًا.

فصفَّق موجلي بيديه طربًا، وهتف قائلا:

– أكيلا. أكيلا. كنتُ أعرفْ أنك لن تنساني. أمامنا عملٌ عظيمٌ، فاقسِم الماشيةَ قسمين يا أكيلا، أبق الإناث وصغارها في ناحية، والثيرانَ والعجولَ في ناحية أخرى.

وأسرعَ الذئبان أحدُهما خلفَ الآخر، وتوغّلا بين القطيع مرات

عدة، فرفعت الماشية رؤوسها، ونخرَت غاضبةً، وانقسمت قسمين. وفي قسم منها وقفت الإناثُ في دائرة تحيطُ بصغارها، وقد تطاير الشررُ من أعينها، وراحت تضربُ الأرضَ بأظلافها استعدادًا للهجوم على الذئبين، وسحقهما.

وفي الناحية الأخرى تجمعت الثيرانُ الكبيرةُ والصغيرةُ تنخُر أيضًا، وتضربُ الأرضَ بأرجلها، وإن كانتْ أقلّ خطرًا منَ الإناث، التي تدافعُ عادةً في وحشية عن صغارها. بيْد أن الذئبين أتيا عملا عظيمًا، فما كانَ في استطاعة ستة رجال أن يقسموا الماشيةَ بهذه الدّقة.

وقال أكيلا لاهثًا:

– هل من أوامرَ أخرى؟ أسرعْ فهيَ تحاولُ الاجتماعَ.

وقفز موجلي إلى ظهر راما، وقال:

– سق الثيرانَ بعيدًا نحوَ اليسار، يا أكيلا، أما أنتَ يا جراي، فأبق الإناثَ معَ صغارها هنا، وعندما نبتعدُ ادفعها جميعًا إلى قاع الأخدود عند فتحته السفلى.

وسأل الأخ جراي لاهثًا:

– إلى أيّ مكان منَ الفتحة؟

فهتف موجلي وهو يسيرُ:

– إلى حيثُ ترتفعُ جوانبُ الأخدود أكثر مما يستطيعُ شيرخان أن

يقفز. وأبقِ الإناثَ مع صغارها هناك حتى تنحدرَ إليكَ من فُوَّهة الأخدود العليا.

وتقدمت الثيرانُ سريعًا عندما عوَى خلفها أكيلا، فلما ابتعدَ موجلي وأكيلا والثيرانُ، وقفَ الأخُ جراي أمامَ إناث الجاموس، فلما رأته حملتْ عليه في الحال، وهاجمته غاضبةً، فجرَى أمامها وهي تجري من خلفه إلى فتحة الأخدود السفلى، كما أمره موجلي.

وقال موجلي لأكيلا وهما في الطريق:

– حسنًا فعلنا، هجمةً أخرى ونسجلُ بداية طيبة. احترس يا أكيلا، ولا تبالغْ في العضّ، وإلا استدارت الثيرانُ وهاجمتك. أقسمُ أنه عملٌ عظيمٌ، فهل كان يدورَ بخلدك أنْ تستطيعَ هذه المخلوقات الحركة بمثل هذه السرعة؟

فأجابَ أكيلا، وهو يشهَقُ بينَ الأتربة المتناثرة:

– طبعًا، طالما اصطدمت أيضًا هذه المخلوقات أيام الشباب ماذا تريدني أنْ أفعلَ الآن، أأدورُ بها في الغابة؟

– نعمْ، وفي إسراع، فراما يكادُ يُجَنُّ غضبًا. آه لو كانَ في استطاعتي أن أتحدثَ بلغته، وأخبرهُ بما أريدُ اليومَ منهُ.

وانحدَرت الثيرانُ هذه المرة إلى اليمين، وجعلتْ تدوس شجيرات الغابة تحتَ أقدامها وتحطمها.

أما بقية الصبية الرعاة، فقد أسرعوا جريًا إلى القرية، وهم يصرخونَ قائلين إن الماشيةَ تمردتْ وثارَتْ، وهرَبتْ نحو الغابة.

وكانتْ خطةُ موجلي يسيرةً، فهو يريدُ أن يدورَ دورةً كبيرةً إلى أعلى التل، ليصلَ إلى فتحة الأخدود العليا، وينحدر منها بالماشية، فيحتبس شيرخان بين الثيران وإناثها، التي تنتظرُه مع جراي عند الفتحة السفلى.

وكان يعرف أن البَبر لنْ يستطيعَ الدفاعَ عن نفسه بعدَ أنْ أكلَ وشرب كثيرًا، ولنْ يساعدَه بطنه الممتلئ على تسلق جوانب الأخدود، فجعل يهدِّئ الثيرانَ بصوته؛ وانسحب أكيلا إلى الوراء عاويًا بين آن وآخر، ليحفِز الثيرانَ على الإسراع.

وبعدَ دوْرة طويلة جدًّا، وصلوا إلى رأس الأخدود، فجمعَ موجلي الماشية الحائرةَ فوقَ بقعة منَ الأرض، تنحدرُ في شدة نحو قلب الأخدود، ونظرَ من أعلى؛ وما كان أشد فرحه إذ رأى الجوانب ترتفعُ في استقامة وقد تدلتْ عليها الكرومُ والنباتاتُ الزاحفة فلا تستطيعُ أقدامُ الببر أن تتشبَّثَ بها للخروج.

ورفعَ الصبيّ يدَه وقال:

– دَع الثيرانَ تسترحْ وتهدأ يا أكيلا، فرائحة الببر لم تصلْ إلى خياشيمها بعدُ. لقد قطعنا على شيرخان طريقه من منفذي الأخدود، وسأخبره الآن بما ينتظره.

ورفع راحَتيْه إلى فمه، واتجهَ بصوته نحو الأخدود، وصرخ ينادي الببرَ، فتردد الصّدى، وانعكس من صخرة إلى أخرى.

وبعد فترة طويلة جاءَ الرد في زئير بطيءٍ متناومٍ، لببر مليء البطن، يستيقظ من نومه فجأةً.

قال شيرخان:

– من ينادي؟

فصرَخَ طاوُوسٌ جميلٌ رُعبًا، وضرَبَ الهواء بجناحيه، وخرَج من الأخدود مسرعًا.

فصاح الصبيّ:

– موجلي يناديك. لقد آن الأوانُ، يا سارق الأبقار، لأنْ تعودَ إلى صخرة الشورَى.

والتفتَ إلى الذئب يقولُ:

هيًّا إلى أسفلَ، ادفع الثيرانَ سريعًا إلى أسفلَ يا أكيلا، إلى الببر يا راما.

واندفع إلى الأخدود جمع "كبير" من القرون السوداء، والأفواه المُزْبدة، والأعين الغاضبة، وانحدرتْ كما تنحدر الصخورُ الصغيرةُ أمامَ السيول. وكانت الثيرانُ الصغيرةُ قد انحازت إلى الجانبين، فاندفعت إلى الأمام تخترق طريقها بين النباتات المتسلقة.

وفهمت الحيواناتُ ما يريده الصبيّ منها، أي أنْ تهجم هجومها المخيفَ الذي لا يجرؤ ببرٌ على الوقوف أمامه. وسمع شيرخان صوتَ أظلافها يتردّد رعدًا بين جوانب الأخدود، فتحامل على نفسه، ونهض متعثرًا إلى قاع الأخدود، وتلفت يمنةً ويسرةً عسى أن يجد طريقًا للهروب، فقدْ جعله بطنه المليء راغبًا عن القتال. ولما لم يجد مهربًا من جدران الوادي القائمة اضطر إلى السير أمامًا.

واندفعت الثيرانُ نحوَ الغدير الذي خلفه موجلي وراءه، وخارتْ عاليًا، فأجابها خوارُ الإناث من طرَف الأخدود الآخر. وتبين شيرخان موقفه الحرِج فاستدارَ ثانيةً نحونَ الثيران، ليهرُب من وحشيَّة الإناث التي تحمي صغارها، فوَطئته أقدامُ راما، ومن خلفه سارَ بقية القطيع فوقَ جسده اللين.

واجتمعَ فريقا السائمة عندَ نهاية الأخدود، فقفزت الماشية الصغيرة إلى الهواء بفعل الاصطدام المفاجئ، وانتشر الكل في السهل في غضب وثورة. وهبط موجلي من فوق ظهر راما في الوقت المناسب، وضرَبَ بعصاهُ يمينًا وشمالا؛ وهتفَ قائلا:

– فرقهم بسرعة يا أكيلا، وإلا قاتلَ بعضهم بعضًا. ادفعهم بعيدًا. هاي، راما. هاي ... هاي ! اهدءوا الآن، يا صغاري. اهدءوا، فلقد انتهى كل شيء.

وجرى أكيلا والأخُ جراي بينَ الحيوانات جيئةً وذهابًا، وعضّا عراقيبَ الماشية لتفريقها! فالتفتت الثيرانُ نحوَ الأخدود لتهاجم الببرَ مرةً أخرى، غيرَ أن موجلي استطاعَ أن يحولَ راما نحوَ المتمرّغ فتبعه الباقون. ولم يكن شيرخان في حاجة إلى قتال آخر، لأنه كان ميتًا في مكانه، وانحدرت جماعةٌ من الحدإ في طريقها إليه.

فقال موجلي:

– هذه ميتةُ الكلاب، يا صديقي!

وفتش عن السكين الذي اعتادَ حملهُ منذُ أنْ هجرَ الأدغالَ، وأخرجه من جراب يعلقه حولَ عنقه، وقال:

– ما كانَ في استطاعة هذا الجبان أن يقاتلَ. سيبدو جلده جميلا فوقَ صخرة الشورَى؛ فهيا بنا نعملْ سريعًا.

وما كانَ صبيّ عاشَ بينَ البشر، ليستطيعَ أن يسلخَ وحده جلدَ ببر يبلغُ طوله عشر أقدام، ولكنّ موجلي كان يعلمُ الكثيرَ من حياته في الأدغال، ويعرفُ كيفَ يلتصقُ جلدُ الحيوان بلحمه، وكيفَ ينتزعُ ذلك الجلدَ. وانقضتْ ساعةٌ، وموجلي منهمكٌ في عمله الشاقّ، يزمجرُ ويقطعُ ويسلخُ! وعلى مقربة منهُ وقفَ الذئبان يلهثان، ويعاونانه عندما يأمرهما بذلك.

وأحس موجلي بيد تمس كتفه، ورأى بجانبه بالديو يحملُ بندقيتهُ

الكبيرة! فلقدْ أخبرَه الصبيةُ بتمرد الماشية، فأقبلَ غاضبًا، لتأديب الصبيِّ على إهماله. وانسحب الذئبان في مهارة وسرعة عندما أقبلَ الرجلُ.

قال بالديو غاضبًا:

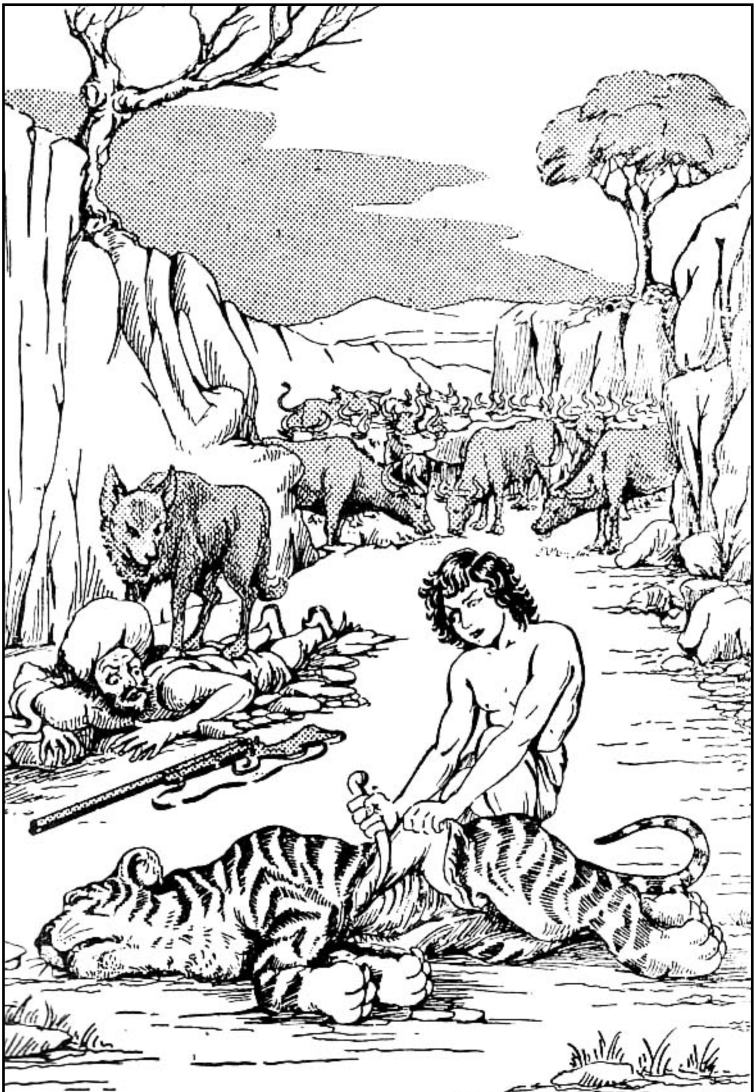
– ما هذا الجنون؟ أتظن أنّ في استطاعتك سلخَ الببر؟ آه، هذا هو الببرُ الأعرج، وقد قتلته الماشيةُ، وهناك مائةُ روبية ثمنًا لرأسه، حَسنًا. حسنًا. سأتغاضى عن إهمالك في حراسة الماشية، وربما أعطيتك إحدى الروبيات بعد أن أحمل جلده إلى كانهيوارا .

وبحث في منطقته عن قطعة من الصلب والصوان، ليحرقَ شواربَ شيرخان، فمن عادة الصائدين أن يحرقوا شواربَ الببر، خشية أنْ يتنازعهم شبحه فيما بعد.

وجعل موجلي بسلخُ رجلَ الوحش، ويقول كأنه يحدث نفسه:

– تمامًا، ستأخذ الجلدَ إذًا إلى كانهيوارا من أجل الجائزة، وربما أعطيتني روبية؟ لا. احتفظْ بروبيتك، واعلمْ أنني أريدُ الاحتفاظَ بهذا الجلد، أبعد النارَ أيها العجوزُ!

– أهكذا تتحدثُ إلى زعيم القناصة في قريتك؟ لقد كانَ الحيوانُ بطيئًا لامتلاء بطنه، ولولا الحظّ وغباوَةُ الماشية لما استطعت قتله. أو تجرؤ، أيها الشحاذُ الصغيرُ على منع بالديو العظيم من حرْق شواربه؟



لن أعطيكَ يا موجلي درهمًا واحدًا، وستنال من أجل قحتك ضربًا مبرحًا، فهيا انهض، واتركْ هذه الجثة!

فأجاب موجلي، وقد انتهى من الرجْل وانتقل إلى الكتف:

– أقسمِ بالثور الذي افتداني ألا أقضي الظهيرة في استماع ثرثرة قرد عجوز، تعالَ يا أكيلا، فهذا الرجلُ يضايقني.

وكان بالديو ينحني فوقَ رأس الببر، فوجد نفسه ممددًا على الأرض فجأة، وقد وقفَ فوقه ذئبٌ رماديٌ كبيرٌ. واستمر موجلي في عمله، وصرتْ أسنانهُ وهو يقول:

– صدَقتَ، يا بالديو، لن تعطيني درهمًا واحدًا من الجائزة، فبيني وبينَ هذا الببر الأعرَج حربٌ قديمةٌ خرجتُ منها ظافرًا.

ولو كانَ بالديو أصغرَ من ذلك بعشر سنوات، لقاوَمَ أكيلا. ولكنه كان شيخًا، فضلا عن أن ذئبًا يُطيعُ أوامرَ صبيّ ويشن الغارات والحروب على ببر، لهو حيوانٌ رهيبٌ. وظن بالديو أن هذا العملَ من شرّ أنواع السحر والشعوذة، وتساءلَ: أيستطيعُ الطَّلسمُ المعلقُ حولَ عنقه أنْ يحميهُ.

وظلّ في مكانه ساكنًا مرتعدًا، وهو يتوقعُ أن يرى موجلي ينقلبُ ببرًا؛ وأخيرًا قال العجوزُ مرتجفًا لفرط ذعره:

– أيها الملك العظيمُ.

فأجاب موجلي دونَ أن يديرَ رأسه:

- ماذا تريدُ؟

فقال الشيخ:

- إنني عجوزٌ، يا مولاي، وكنتُ أظنكَ راعيًا صغيرًا، فسامحني، وائذنْ لي أنْ أنهضَ وأنصرف، ومرْ خادمك هذا ألا يمزقني إرْبًا إربًا.

- اذهبْ إذًا، ولتصحبك السلامة؛ لكنْ تذكرْ في المرة القادمة، ألا تتدخلَ في شؤون صيدي. دعْهُ يذهبْ، يا أكيلا.

وأسرع بالديو إلى القرية في أسرع خطى يستطيعها، وجعلَ يتلفَّتُ بينَ آن وآخرَ خشية أن ينقلبَ موجلي إلى شيء رهيب. وعندما وصل إلى القرية سرد على القوم قصةَ السحر والشعوذة، فوَجمَ الكاهنُ. واهتم بالأمْر.

وعندما انحدرت الشمس، وأقبلَ الغسقُ، كانَ موجلي قد انتهى من سلخ الببر، وسحَبَ جلده من تحت جثته بمساعدة الذئبين.

وقال:

- علينا أن نخفي هذا الجلدَ، ونعودَ بالماشية إلى القرية، فساعدني في قيادَتها يا أكيلا.

وتقدمت الماشيةُ نحوَ القرية، فلما أشرفتْ على أسوارها، رأى موجلي الأنوار، تتلألأ، وسمع رنين أجراس المعبد، ودرْدَبة طبوله؛

وتجمع نصفُ القرويينَ ينتظرون عندَ البوابة؛ فقالَ الصبيّ مغتبطًا:
- هذا الاستقبالُ العظيمُ، لأنني قتلت شيرخان.
ولكن سيلاً من الأحجار اندفعَ نحوَهُ، وتطايرَ بعضهُ حوْل رأسه وأذنيه، وسمعَ الناسَ تصرُخُ قائلةً:
- يا ساحرُ، يا بنَ الذئب، يا شيطانَ الغابة، اذهبْ عنا، وإلا مسخك الكاهنُ ذئبًا مرة أخرى. سدد الرماية، يا بالديو. سدد.
وانطلقتْ البندقيةُ الكبيرةُ، وأصابَ الطلقُ جاموسةً صغيرةً، فصرختْ متألمة.
وهتفَ القرويون:
- ما أشد سحْرَه، إنه يحوّلُ اتجاهَ الطلقات، ولقدْ قتلت يا بالديو جاموستك!
وازداد سقوطُ الأحجار، فتساءل موجلي معجبًا:
- ما هذا ؟!!
فأجاب أكيلا في رزانة:
- إن إخوتك هؤلاء يا موجلي لا يختلفون كثيرًا عن عشيرة سيوني، ويخيل إليّ أنهم يريدون طردَك بهذه القذائف.
وصرَخَ الكاهن، وهو يحرك غصنًا من نبات التولسي المقدس:
- انصرف عنا، أيها الذئبُ، ويا بن الذئب!

فقال موجلي:

– طردة ثانيةً؟ لقد طردتُ بالأمس لأنني بشرٌ، واليومَ أطردُ لأني ذئب!! دَعنا ننصرف يا أكيلا.

وخرجت امرأةٌ من بين الجموع، وتقدمتْ إلى الأمام وهتفت قائلةً:

– ولدي! ولدي، يقولونَ إنك ساحرٌ تنقلبُ وحشًا متى تريدُ لست أصدقُ ما يقولونَ، ولكن اذهب وإلا قتلوكَ. أعرفُ أنك انتقمتَ لناتو من الببر!

وصرخت الجموعُ تردعُ المرأةَ:

– عودي، يا ميسيوا، وإلا رجمناك.

وضحكَ موجلي ضحكةً قصيرةً غاضبةً، إذ أصابَ فاه حجرٌ كبيرٌ، وقال:

– عودي إليهم، يا ميسيوا، ولا تصدقي حديثهم السخيفَ، لأنه أكاذيبُ كالتي يرددونها تحتَ الشجرة الكبيرة. لقد انتقمتُ لابنك من الببر، فوداعًا. لستُ ساحرًا، يا ميسيوا، فوداعًا مرةً أخرى. عودي لأنني سأرسلُ الماشيةَ في سرعة الرياح.

والتفت إلى الذئب قائلا:

– ادفع الماشيةَ إلى الأمام، يا أكيلا.

وكانت الماشية في شوق شديد إلى العودة، فاندفعت نحو القرية دونَ أن يعوي أكيلا، وتسارعت إلى البوابة كالإعصار، فتفرقَ الناسُ يمينًا وشمالاً.

فقال موجلي في سخرية:

– عدوها، فربما أكونُ قد سرقتُ واحدةً منها، عدوها، فلن أرعى لكم ماشيةً بعدَ اليوم. وداعًا، يا بني البشر، واشكروا ميسيوا، فمن أجلها لن أعودَ مع ذئابي، لأرعبَكم، أو أعذبكم في غداوتكم وروحاتكم.

ورجعَ أدراجه، وابتعد في الظلام مع الذئب الأوحد، وعندما رفعَ رأسه، وشخصَ إلى النجوم، أحس براحة عظيمة، وغمرته سعادةٌ فياضةٌ؛ وقال:

– لن أنامَ، في شرك بعدَ الآن، فهيا بنا، يا أكيلا، لنحضر جلدَ شيرخان، ثم ننصرف. لن نؤذيَ أهلَ القرية إكرامًا لميسيوا الطيبة.

وبزَغَ القمرُ في السماء، وأطلّ على السهل، فابيض كأنه اللبنُ! ورأى القرويون موجلي يسيرُ من بعيد، وهو يحملُ الجلدَ فوقَ رأسه، ويقطعُ الأميالَ مع زميليه في خطى الذئاب السريعة.

وقرعت أجراسُ المعبد سرورًا، ودرْدبت الطبولُ، فبكت ميسيوا؛ أما بالديو فجعلَ يردد قصةَ مغامرته مع موجلي، ويضيفُ إليها حوادثَ من

خياله، إلى أن قالَ إن أكيلا وقفَ على خلفيتيه، وتحدث إليه كما يتحدث البشرُ.

وكانَ القمرُ ينحدرُ نحوَ الغروب عندما وصلَ موجلي وذئباه إلى التل، حيثُ كانت صخرة الشورى، ووقفوا عندَ كهف الأم ذئبة.

فقال موجلي:

– لقد نبذتني عشيرة البشر، يا أماه، فعدتُ بجلد شيرخان برًّا بوعدي.

وفزعت الأم ذئبة، وخرجت من الكهف تتبعها الجراء، ونظرت إلى الجلد، فالتمعت عيناها بهجة وسرورًا! وقالت:

– لقد قلتُ له يومَ جاء يجري خلفك، وحشرِ رأسه وكتفيه في فُوّهة الكهف، إن الصائدَ سيكونُ مصيدًا؛ فحسنًا فعلت، أيها الضفدعُ الصغيرُ.

وهتفَ صوتٌ عميقٌ من الدغل يقولُ:

– أعظِم بما أتيتَ، يا أخي الصغيرُ. لقد تركتنا في وحشة نقاسي الوحدةَ في الغابة بعدك.

وأقبلَ بجهيرا، ووقفَ بجوار قدمي موجلي العاريتين، وذهبوا جميعًا إلى صخرة الشورى، فنشر موجلي جلدَ الببر فوقَ الصخرة المسطحة حيثُ اعتادَ أكيلا أن يجلسَ فيما مضى، وثبتَ أطرافَ الجلد بأربعة أغصان.

وجلس أكيلا فوقها، وأطلقَ نداءه القديم للعشيرة:

– انظروا. انظروا جيدًا، أيها الذئاب.

تمامًا كما نادى يوم حضر موجلي مجلسهم أولَ مرة.

فمنذ أن طُردَ أكيلا والعشيرةُ تعيشُ بغير زعيم، والذئابُ تصيدُ وتتقاتلُ كما يحلو لها دونَ رقيب أو حسيب.

ولَبَّىَ الذئابُ النداء كما اعتادوا أن يفعلوا قديمًا، وأقبلَ الكثيرُ منها يعرجُ بسبب فخ سقطَ فيه، أو قذيفة أصابته. وكان بعضها قد تساقطتْ أسنانهُ من إدمان الطعام الرديء، ومات بعضها الآخر، وجاء من تبقى إلى صخرة الشورى، فرأت الذئابُ جلد شيرخان المخطَّط، والمخالب الكبيرة تتدلى من جلد فارغ.

وارتجل موجلي نشيدًا دون نغم، واندفع إلى الحلقة وحده ينشده، ويرقصُ على الجلد، ويضربُ الأرض بقدميه بين مقطع وآخر، فيعوي أكيلا والأخُ جراي. وظلّ يغني ويرقصُ ويقفزُ هكذا حتى تقطعتْ أنفاسه.

وقال أخيرًا:

– انظروا. انظروا جيدًا، أيها الذئابُ، فهل تروْن أنني وفيتُ بوعدي؟

فعوت الذئاب قائلة:

– نعم نعم.

وهتف أحدُها يقولُ بصوت مرتفع:

– تزعمنا ثانيةً، يا أكيلا؛ وقدنا، يا جرو البشر، فلقد سئمنا الحياة بغير قانون، ونريد أن نصبح شعب الأحرار كما كنا.

وزمجر بجهيرا مجيبًا:

– لا! لنْ يكون هذا، فعندما تشبعون، وتمتلئ بطونكم بالطعام، سيعاودكم الجنونُ. لم يطلق عليكم شعبُ الأحرار هباء. لقد قاتلتم في سبيل الحرية، ونلتموها، فكلوها إذًا، أيها الذئاب.

وقال موجلي:

– لقد نبذتني عشيرة الإنسان، كما سبق أن طردتني عشيرة الذئاب، ولذلك سأصيد وحدي في الأدغال.

وقالت جراء الأم ذئبة:

– وسنصيد نحنُ الأربعةُ معك.

وانصرف موجلي، وظل منذُ ذلك العهد يصيدُ في الأدغال مع الجراء الأربعة، ولكنه لم يقض حياته وحيدًا، فبعد سنوات أصبح رجلا، وتزوج! ولكن لهذا الحديث قصة أخرى.

"النشيد الذي ألقاه موجلي وهو يرقص على"
"جلد شيرخان فوق صخرة الشورى :"

هذه أغنـيتــي أنشــدهـــــا ... فاسمعوا الضفدع موجلي في النشيدْ
هدد الشيــرخانُ أن يقتلنــي ... أيها الشيرخان أكثرت الوعيدْ
كلْ ونمْ واحــلمْ بصيد وافـر ... وامتلئ شرْبًا من الماء الزلالْ
كلْ ونمْ واحلمْ فكمْ من نائم ... لا يرى في صحْوه إلا الوبالْ
أنا في المرْعى وحــيدٌ هــائمٌ ... حولَ الثيران في المـْرج تخورْ
تضربُ الأرض وترعى غضبًا ... فــإذا لاح لهــا الـشـر تثورْ
إيه يا شرخـانُ إني مقبـــلٌ ... نحو واديـك أما زلت تنامْ ؟
ها هما هذان ذئبــاي معـــي ... صاحبا عهدي من الرهط الكرام
أيها الذئبان كونا صحبتـــي ... وابعثا الثيران للشعب القريبْ
سوف أمضي صاعدًا أعلى الربى ... فانطلقْ يا ذئبُ للوادي العشيبْ
إيه يا شرخـانُ إنـي مقبــلٌ ... فانتفضْ وانهض إلى وعر القتالْ
خبِّرَنِّـي عنــه يا مـــاء ويـــا ... أيها الصخرُ وأشجار الدغالْ

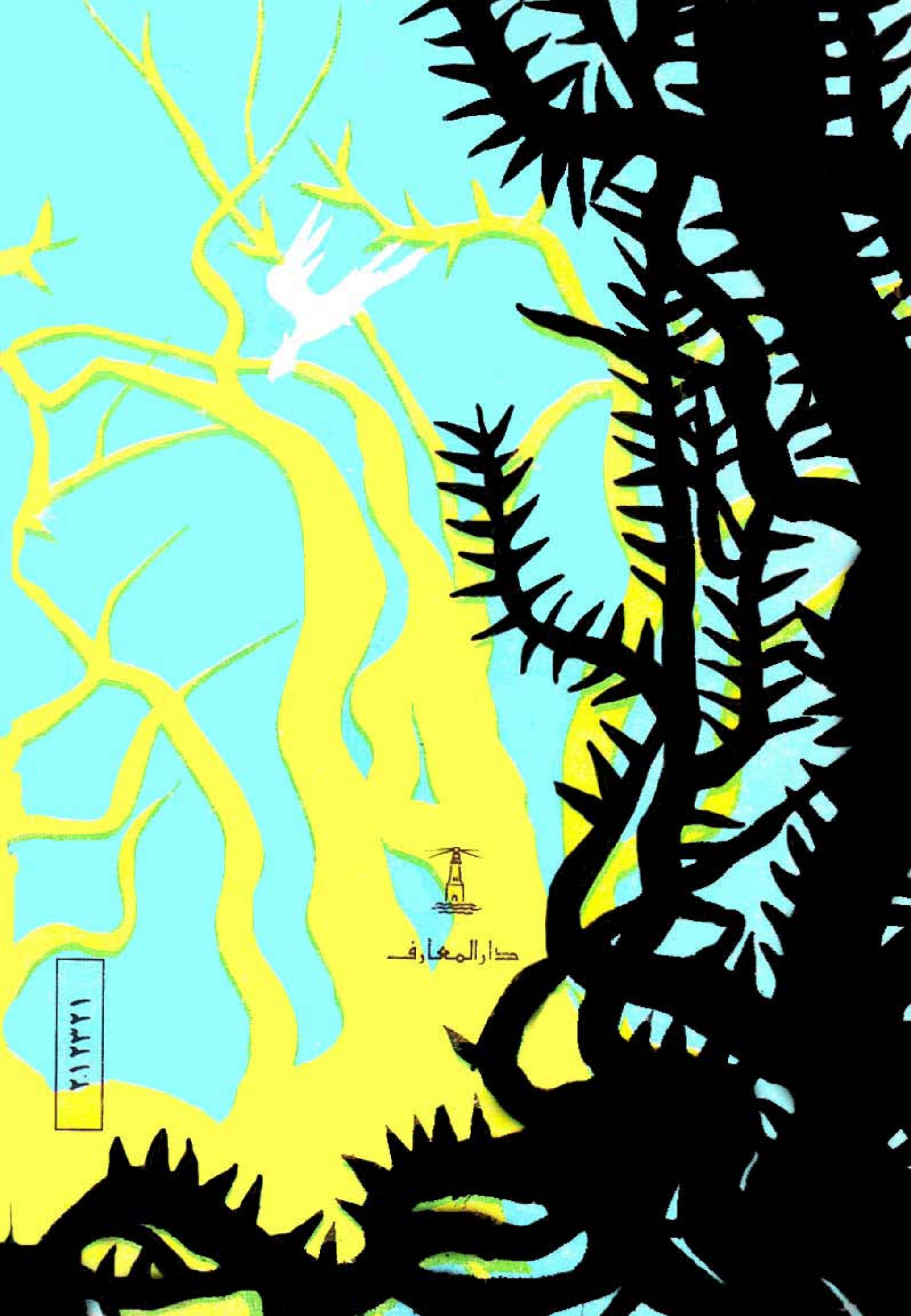
إيه يا شرخانُ أقبل غاضـبًا		واصرح الثيران إن شئت صراعْ
أنت هذا ها هنا فانهضْ أما		كنت لا ترهبُ أن تلقى شجاعْ
هذه الثيــرانُ تــعـلــوك ولا		مخلبٌ يغري ولا نابٌ حديدْ
ها هنا لحمٌ كثيـرٌ فافتــرسْ		هلْ ينامُ الخصمُ عن خصم لدودْ
ما دهى الشرخان ملقى ساكنًا		تطأ الـثـيرانُ من فـوق جنبيهْ
لا أرى إلا صــريــعًا دامــيًا		لا ولا أسمـُـع أصــداء أنينهْ
حامت العقبانُ جوعى حوله		وأتى النملُ جموعًا وجموعًا
أقبلتْ تنشد فيـه شـعــرها		ختم الصمتُ عليهم خشوعا
أين يا شيرخانُ ما أبدع لونًا		جلدُك الزاهرُ أبهى طيلسانْ
كنتُ قدْ أقسمتُ أن ألبــسه		يوم أمضى لشهود المهرجانْ
فاشهدنْ يا ماء ونجونجا على		أن شيرخان حباني وكساني
خلعة من جــلــده بــاهــرة		قسما بالثور أبهى طيلسان
يا صديقي أعيــنــانــي على		ما أعانى فارفعاه وانصباه
إن شيرخان كصخـر راسـخ		فـاحمـلاهُ وانـزعـاه واجذباه
أيها الذئبان هل أبــصــرتما		فعلة الناس وقد ثاروا غضابَا
كيف لاقوني على قريـتهــم		رجموني ثم زادونــي سبابَا

ما لنا والناس قد سال دمـــي حسبنا ما كان منهم من جحودْ
فامضيا بي يـــا صديــقيّ إلى صخرة الشورى إلى الوحش أعودْ
اشهدنْ يا ماء ونجونجا على أنني لم ألق عند الناس خيرا
نبذونـــي كنـــوى التمـر إذا أكلوا في ساحة القرية تمرا
لا أباليهم جميعًا – بشرًا أو ذئابًا – لستُ منهم بحزينْ
فذئابٌ خلـــعونـــــي مـــرةً وأنـــاس خلعوني بعد حينْ
إنني أرقصُ، حســبي أنني فوق جلد الببر العاتي العظيمْ
دوني الغاب مجالٌ واســـعٌ فيه أمضى وإذا شئتُ أقيمْ
غير أني لستُ أدري ما الذي في فؤادي من شجون وهمُومْ
من فمي تجري دماءٌ وعلى خاطري من ظُلم الحزن غيومْ
إن في صدْري صراعًا طاحنًا كالأفاعي في تهاريس الربيعْ
أذْرِفُ الدمع ووجهي ضاحك فأنا شخصان خال ووجيعْ
لا أبالي ما الذي يحزنني ؟ وأنــا أرقـصُ فوق الشيرخان
جلده تحتي ودوني عالمٌ كله يعرفني حـــَّر الجنانْ
يا ذئاب الغاب هيَّا فانظروا دققوا الأنظار يا شعب الذئاب
إن قلبي مثقلٌ يا ليتني أعرف العلة في سر اكتئابي

رقم الإيداع	٢٨٦٥ / ١٩٩١	
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3202 – 5	ISBN

١ / ٩١ / ١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)


دار المعارف

٢٠١٢٣٢١